مقدسيات

--المقدمة-

الحمد لله مركز الوجود, والبرزخ الجامع بين كل موجود, والنور الظاهر في كل محدود. والصلاة والسلام على النبي المُحّمَّد الأحمد المحمود, الذي شعّ نوره في جبين ءادم وتاج داود, وصدّقه أهل الله وأنكره بسرّ نوره كل جاهل جحود وغافل منكود, وعلى آله أولي العلم والتزكية والجهاد الصمود, صلاة يتحرك ضيائها الرباني في ذواتهم ويُحيي بها الأكوان بحركة جوهرية أبدية ما لها انقطاع ولا لروحها جمود.

وبعد.

فإن أولى ما اشتغل به الإنسان بعد سلوك طريق العلم والإيمان, هو محاسبة النفس بحسب ما ناله من علم الكتاب والميزان. فإن للنفس حقوق وعليها حقوق, لا تنال حقوقها إلا بالسعي في تأدية حقوقها لوجه الرحمن. ومن حقوقها التي لها وعليها في نفس الآن, هو عمارة بيت ربّها الحنّان, فإن بيوت ربّها في الأرض هي مجلى الجنان ومُجتنى أنوار العرفان. وأول شروط العمران, تملّك البيت باطمئنان. ولا تملّك إلا بمدافعة أولياء الشيطان. ولا مدافعة عن شيء إلا بعد معرفته حقيقته وموضعه وقدره, ثم ينفتح باب رد العدوان ومحاربة أصحاب الطغيان. فأوّل الأمر العلم, وآخره العمل, وثمرة العمل شهود ثمرة الإيقان والتلذذ بمحصول الإتقان.

وعلى هذا الأساس الراسخ, والتأصيل الشامخ, أدع لسان السجع السماوي وأنزل إلى لسان النثر الأرضي فأقول: في إحدى المجالس الخاصة مع واحد من الأحباب ممن له أصل جسماني مقدسي, وعقل مهتم ببيت المقدس وشؤونه, عرض عليّ بعض من معارفه في هذا الباب, وذكر بعض الأحاديث الشريفة. فسألته إن كان يوجد كتاب يجمع الأحاديث النبوية الواردة في بيت المقدس, فأجاب بالإيجاب, وأرسل لي واحد من هذه الكتب, فقرأته ووجدت بركة هذا الاهتمام مباشرة في نفسي ومحيطي, فأردت الاستزادة من هذه الأنفاس المباركة التي تتنزّل عند ذكر هذا البيت المقدس, فسألته عن نسخة ورقية من الكتاب فأعطاني كتاب "الأربعون مقدسية" لجامعه الدكتور/مروح موسى نصار -شكر الله سعيها. ونيّتي التأمل في كل حديث والاستفتاح على السنّة التي جرينا عليها وانتظار الخواطر من لدن الحق تعالى فإن قلوبنا تأمل الغنى من فضله ورسوله وهي معقودة على بشرى "حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون". وإن كنت أعلم من أن سأبدأ وهو الأحاديث المصطفوية, وكنت أشعر أين سأسلك وهو البركات المقدسية, فإني لا أعلم أين سأنتهي من حيث الأنوار الكشفية والأفكار العلمية, فإن ذلك من محض العناية الإلهية والإفاضات الربّانية.

فتعالوا ننظر.

*****

-1-

عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ستكون هجرة بعد هجرة, فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم, ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الله وتحشرهم النار مع القردة والخنازير).

أقول:

(ستكون هجرة بعد هجرة) هذا ليس تنبؤاً بالمستقبل لكنه مبني على مبدأ كوني وهو مبدأ الدورات. فالأمر يدور والسنن مستمرة. "لن تجد لسنت الله تبديلا". وتفسيره أن للأسباب آثار, وبعد فترة يعود السبب الذي أحدث أثراً ويحدث أثراً آخر له نفس الجوهر وإن اختلفت الصور. فحين ننظر في الحقائق

التي أنتجت الهجرة الأولى, سنجد أن عين تلك الحقائق ستظهر مرّة أخرى وتوجب الهجرة الثانية, وهلّم جراً.
والسؤال: ما الذي أوجب الهجرة الأولى؟ الذي أوجبها ليس وجود الكفر والشرك والفساد في مكة. ولو كان كذلك لوجبت الهجرة من أوّل يوم للبعثة. ولا الذي أوجبها وجود رفض لأكثر أهل مكة للدعوة, لأن الناس قد ترفض شيئاً ومع ذلك يبقى النبي أو العالِم مكلّفاً بتبيين الأمر لهم, وقد جادل نوح قومه ألف سنة. أهم عوامل الهجرة هي الظلم الذي وقع على المسلمين وكان في ازدياد لا في تناقص كلّما بقوا هناك. لكن ما هو هذا الظلم, إذ لا يكفي ذكر الكلمات العامة المبهمة في هذا المجال؟ الظلم يتلخص في أمرين: أ/منع النبي من التكلّم مع الناس في العلن بدون إيذاء له ولأصحابه. بعبارة أخرى, عدم حرية البيان بل المعاقبة عليه. ب/إيذاء المسلمين بسبب دينهم الذي لا تتعارض قيمه الظاهرية العملية مع أحسن ما يفعله أهل مكة, كالوصايا الواردة في سورة الأنعام, فلم يكن لأحد حجّة على المسلمين من حيث تعاملاتهم, لكنهم أرادوا منعهم من علمهم وإيمانهم وعباداتهم والدعوة إلى تعاملاتهم بالكلام, بعبارة أخرى, عدم حرية الأديان بل المعاقبة عليها. وجمع بين هذين الأمرين قول مؤمن آل فرعون الذي روي مثله عن أبي بكر في إحدى الحوادث أيام مكة "أتقتلون رجلًا أن يقول ربّي الله". "أتقتلون" تدل على القتل وهو يرمز للعقوبة النفسية والمالية لأنه أشد أنواع العقوبات النفسية ولا ينتفع الإنسان بماله بعد موته عادة, فوجود القتل دليل على فتح باب المعاقبة المادية على مصراعيه. و "أن يقول" تدل على القول أي البيان والكلام والألفاظ اللغوية والتعبيرات اللسانية-نؤكد على ذلك حتى تتميز عن الأفعال والتعاملات مع الآخرين والتصرف في الأشياء الخارجية من قبيل العقد والسرقة وتكسير الأصنام مثلًا. فآل فرعون-مثل أهل مكة والذي قايس الله بينهما حين أشار إليهم في آية "إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا"- كانوا يعاقبون على القول إن استطاعوا مباشرة, أو احتالوا لذلك حين لا يستطيعوا إنفاذ عقوبتهم بسبب خشيتهم من عشيرة منافسة وما أشبه مما يعرفه من نظر في السيرة النبوية وسير المسلمين الأوائل. و "ربي الله" تشير إلى البُعد الديني والفكري والإيماني والعلمي, فإن الربوبية "ربي" تشير إلى الدين الذي ينزل على الإنسان من ربه مباشرة أو بواسطة فهي تدل على الجانب العملي من الدين وإن تضمن بعضاً من الجانب العلمي والإيماني منه, وأما كلمة "الله" فإنها تشير إلى العلم ورأي الإنسان في الوجود "فاعلم أنه لا إله إلا الله" فهي قضية علمية وعقلية ومعرفية. بالتالي يمكن النظر للمعاقبة على قول "ربي الله" على أنها تشمل جنس الأقوال الدينية والعلمية كلّها, وما تعبير "ربي الله" بعد ذلك إلا أحد الأنواع المندرجة في ذلك الجنس العام للدين والعلم والرأي. وهكذا ستجده في بلاد الطغاة دائماً, ستجدهم يعاقبون على القول الديني والعلمي والفكري, ويصل أكثرهم إلى المعاقبة بالقتل, وتسبيب تلك العقوبات عموماً والقتل خصوصاً معروفة وقد أخبرنا الله أن فرعون أراد قتل موسى من أجل المصلحة العامة "إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد", أي أراد فرعون حفظ الدين والطريقة المثلى, وأراد أيضاً الحفاظ على الأرض وعدم الإفساد فيها, وبطبيعة الحال فرعون يرى أن الذي يريد أن يهدم الدين ويفسد في الأرض هو موسى كليم الله. والحجج عادة نفسها في كل البلاد الفرعونية النموذج, الاستعانة بحجّة حفظ الدين وحفظ الأرض, أو المصلحة الأخروية والدنيوية, أو قل ما شئت من عبارات تختلف أشكالها وتتفق مقاصدها. وكذلك كان الأمر في مكة. ولذلك حين بدأت الهجرة منها أوّلا إلى الحبشة, كان تعبير النبي صلى الله عليه وسلم هو أنه في الحبشة "ملك لا يُظلّم عنده أحداً". لاحظ التعبير بالظلم, مما يؤكد أن عدم حرية

البيان وعدم حرية الأديان هو من صميم الظلم وأبرز مظاهره التي أباح الله حتى القتال عليها كما ورد في الآيات بعد ذلك وكما فعله المسلمون فعلياً عبر التاريخ, لكن حين يُترَك للناس هذين الأمرين كانوا يسالمونهم-لا أقلّ المحسنين منهم-والآيات صريحة في الباب "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين". وحيث أن الدين في المفهوم القرءاني يشمل العلم والعمل, ويشمل جميع تفاصيل الحياة إجمالًا, فإن القتال في الدين يشمل ما سبق من أمور ومنها القول وترك الدين السائد واستبداله بدين آخر حتى لو كان مخالفاً ومعارضاً لما عليه كبار أهل تلك البلاد فضلًا عن عوامها ومع ذلك لا يحق لأهل تلك البلاد إكراه أو معاقبة الذين يتركون دينهم إلى دين آخر ولا تهمة "صبأ" وهي معنى آخر للردة والترك والرفض للدين السائد كافية في تبرير أي عقوبة بل هي من صميم الظلم الذي أوعد الله عليه بقوله "لنهلكن الظالمين", وقصص الأنبياء في القرءان تظهر هذا المعنى. الحاصل, أهم أسباب الهجرة الأولى يرجع إلى أمرين: المعاقبة على البيان, والمعاقبة على الأديان.
فقول النبي صلى الله عليه وسلم (ستكون هجرة بعد هجرة) يشير بالهجرة الثانية إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة والمدينة في زمنه. ويشير بالهجرة الأولى إلى عودة أسباب الهجرة من جديد بعد ذلك. لكن هنا يطرأ سؤال مهم يفرض نفسه: قد علمنا من أحاديث أخرى صحيحة ومعروفة أن الإسلام سيظل في الأرض وسيبقى الحج إلى آخر الزمان مثلًا, بل ستوجد المساجد المزخرفة والمصاحف أيضاً إلى آخر الزمان, وسيوجد الذين يقولون من قول خير البرية ويخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية أيضاً, بعبارة أخرى, الإسلام سيبقى في الأرض وينتشر ويبلغ ما بلغته الشمس في مشارقها ومغاربها, وهذا مُشاهد الآن إلى حد كبير, فالسؤال, كيف ستوجد أسباب الهجرة من جديد إن كانت الأرض أرض مسلمين؟ قد يقال: ستعود الأرض كافرة في ذلك الزمان وستكون الأرض الوحيدة المتمسكة بالإسلام هي "مهاجر إبراهيم" حسب هذا الحديث. لكن المشكلة في هذا التفسير أنها تعارض المقدمات الثابتة التي ذكرناها, وذلك أن النبي قال بأن أرض العرب مثلًا لا يعبد فيها الأصنام ويحدث فيها الشرك بعد زمنه والشيطان يئس من ذلك. فضلًا عن بقية الأحاديث, فضلًا عن واقع الحال الذي ينتشر فيه المسلمون. نعم قد تقول: نحن الآن لسنا في آخر الزمان ولذلك تلك المعاني لا تخصّنا بعد. وهذا تفسير معقول ومقبول, إلا من جهة واحدة خطيرة, وهي أن أسباب الهجرة الأولى فعلًا متحققة وقائمة في معظم البلاد اليوم. ألا توجد معاقبة على البيان, ومعاقبة على الأديان؟ توجد. إذن ما الفرق بين حال هذه البلاد وحال مكة زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ لا فرق إلا الفروق الاعتباطية والثانوية. كيف توجد ممارسات سياسية وقانونية ممنهجة ومنظّمة غايتها من حيث الجوهر وأحياناً من حيث بعض الصور هو نفس ما كان يقول به أمية بن خلف بسيدنا بلال رضي الله عنه أي معاقبته لأنه يقول شيئاً ولأنه تديّن بدين يخالف السائد وذهب مذهباً مخالفاً للكبراء في بلده, أو ما كان يفعل بعمار بن ياسر من إكراهه على النطق بكلمات لا يريدها وإلا سيستمروا بإنزال الآلام على جسمه. حين يضطر المسلم وغير المسلم, إلى إنشاء جماعات سرية أو اجتماعات سرية وفي الخفاء و "تحت الأرض" لكي ينشر علماً أو يجادل عن فكر أو يتباحث في دين, أليست هذه صورة أخرى تعبر عن ما كان الحال عليه في مكة قريش والتي أدت إلى إنشاء دار الأرقم. لا تنظر إلى الصور لكن انظر إلى الجوهر. الجوهر واحد ومشترك من هذا الوجه. فلا نستطيع التوفيق بين تلك المقدمات وبين التفسير المقدّم لحديث الهجرة بعد الهجرة, خصوصاً أنّا قد ذكرنا بأن مبدأ الدورات والأسباب هو الحاكم على ظهور الأمور في الكون, فالنبي لا يخبر عن هجرة

كما يخبر عن أي حدث مستقل منفصل لا علاقة له بأي شيء وكأن الأحداث في الكون تظهر اعتباطاً وبغير نظام للعالَم وسنن إلهية فيه, ولو أراد النبي ذلك لقال: ستكون هجرة في آخر الزمان يحدث فيها كذا وكذا. التعبير النبوي (ستكون هجرة بعد هجرة) بنفس تركيبه يشير إلى مبدأ الدورة الكونية, وهو نفس المبدأ الذي خرج منه حديث "لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة" وغيره من الأحاديث التي تكشف عن أن ما كان في الأولين سيقع في الآخرين, وعلى هذا الأساس يعقل الإنسان معنى كون القرءان لآخر الزمان. ولو كان القرءان يحكي فقط عن حوادث مستقلة للماضين لما كان ثمة نفع فيها للآخرين القادمين, ولا ينظر للقرءان كذلك إلا كافر به أو غير منتفع بحقيقته ولا مستضيئ بنوره. بناء على ذلك, لابد من النظر في الأحاديث نظرة تبحث عن المبادئ الكلية لا نظرة تشتغل بالتخرصات الزمنية والتفاصيل الثانوية, و"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه", وما يعنيك هو المبادئ الكلية التي لها ظهور أو قد تظهر في كل زمان ومكان. ولا نستطيع أن نقول بأن الكفار سيغلبوا المسلمين ويستأصلونهم ويقيموا أسباب الهجرة الثانية. لأن النبي قد قال بأنه دعا الله بأن لا يسلّط علينا عدواً من غيرنا يفنينا واستجاب الله له. فباختصار, لو جمعت كل الأحاديث التي تتحدث عن ما سيبلغه الدين وقوة المسلمين في الأرض وانتشارهم وكثرتهم, فضلًا عن مشاهدة واقع الحال, تكشف لك أن حصول مقتضيات الهجرة لا يمكن أن تكون بسبب استيلاء الكفار بالمعنى العام والظاهر على بلاد المسلمين واضطرار المسلمين إلى الهجرة كما اضطروا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وعلى ذلك, (ستكون هجرة بعد هجرة) تشير إلى أن بعض من يظهر الإسلام سيقوم بإنشاء نفس الأسباب التي أدت إلى الهجرة أيام النبي, لكن هذه المرة لن تكون باسم الشرك والكفر الصريح, بل ستكون باسم الإسلام نفسه. ستتم معاقبة الناس على البيان باسم الإسلام, وستتم معاقبة الناس على الأديان باسم الإسلام. وكل ما كان يحدث في مكة من ظلم ومفاسد بدرجة أو بأخرى, ستعود في بلاد المسلمين لكن هذه المرة باسم الإسلام وبأحكام يُدعى أنها مستمدة من قول خير البرية. وأهم تلك المظالم هي البيان والأديان. سيقال بأن بعض الكلام لا يجوز قوله وإلا تتعرض لعقوبة, ثم سيتدرج الأمر إلى أن يصل إلى حد أن يصير الأصل في الكلام المنع والاستثناء السماح, أي سيفترض كل متكلم بأن ما يقوله قد يعرضه لمشكلة ومصيبة مع الحكام أو العوام, وسيخشى الناس من الكلام ويحسبون له ألف حساب, وسيصيب الأمة حالة من الخرس أو سيقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وحتى هؤلاء سيقومون بذلك باسم الإسلام وأحاديث خير الأنام. سيأتون بآيات وأحاديث تبرر لضميرهم الخرس عن الحق والنطق بالباطل. سيصير النفاق من الضرورات وحسن السياسة والنظر في العواقب ومراعاة الظروف. وحين يحصل ذلك, لا يجد عموم الناس حرجاً من معاقبة شخص لأنه تجرأ على كسر القاعدة والقول بغير المقبول قوله في العلن, وحينها سيأتي أمية بن خلف بسوطه ويجلد كل بلبل يتجرأ على التغريد خارج السرب, طبعاً في الدورة الجديدة سيكون أمية بن خلف هو من المسلمين الذين يحكمون بشرع الله ويما يقتضيه النظام العام والمصلحة العامة وتطبيق القوانين النابعة من المصالح المرسلة التي أقرّتها الشريعة. أما بالنسبة للأديان, فكما تم تبرير معاقبة النبي والمسلمين في مكة بتهمة "صبأ محمد", فإن "صبأ" سيتم استبدال لفظها وإبقاء جوهرها. ما معنى "صبأ"؟ ترك دينه ودان بغيره. يعني؟ ارتد. ارتد محمد عن ديننا. وأخذ بدين آخر, أجنبي عني, مخالف للسائد عندنا. وهكذا في الدورة الجديدة سيتم تبرير قتل الناس وتعذيبهم ومقاطتهم وحصارهم بحجّة أنهم صبأوا, أي ارتدوا, أخذوا بمذهب آخر, أخذوا بشيء وراء ما عندنا, تعلّموا من الأجانب والآخرين وأعانهم عليه قوم آخرون.

قد تقول: هل يوجد في كتاب الله ما يبرر معاقبة الناس على البيان أو على الأديان؟ الجواب القاطع: كلّا. بل الأدلة كلّها تدل على غير ذلك. حينها ستقول: لكن كيف ستبرر قريش الجديدة إقرار أمر ليس في كتاب الله؟ الجواب كالتالي: أوّلًا سيتم تهميش كتاب الله, والعمل قدر الإمكان إما على عدم الالتفات إليه جدّياً أو الاكتفاء بالتغني به واستعماله في الطقوس السحرية أو الجنازات أو ما أشبه من أمور تخالف مقصده الجوهري وهو تعليم العلم وتقرير الحكم. ثانياً سيتم تقديم فئة معينة من الناس على أنها هي وحدها المؤهلة ل"تفسير" كتاب الله, فكتاب الله مبهم وغير مفهوم ولم ينزل لعموم الناس أصلاً اللهم إلا بأن يقرأوه ويأخذوا حسنات على حروفه, لكن فهم الكتاب ودراسته وتحقيق أحكامه فهذه وظيفة خاصة لا يقوم بها إلا بعض الناس. ومن بين هذا البعض, نحن لن تعترف قريش الجديدة إلا بالطائفة التي تقول في كتاب الله ما يناسب ما تريده, ولذلك ستجد النزاع بين العلماء والذين يتسمون بالعلماء قائماً على قدم وساق في الدورة الجديدة, وينفي بعضهم بعضاً ويحسد بعضهم بعضاً, ينفون بعضهم حتى تكون السلطة لأشخاصهم فقط, ويحسدون بعضهم لأن في الولاء لقريش الجديدة مكاسب مالية ومناصب عليّة. ثالثاً وهو الأهمّ سيتم عرض مصدر آخر للأحكام وسيصير هو المحور والمركز وكتاب الله في أحسن الأحوال مصدّق جانبي وهامشي له, وهذا المصدر لابد أن تكون له سلطة مثل سلطة كتاب الله فلا يعقل إلا أن يكون هو رسول الله, بذلك يحدث التأثير المطلوب, ومن هنا نشأت مركزية الحديث وهامشية القرءان, ولا حكم من القرءان ينفع بدون مصدّق له من الحديث, وفي أحسن الأحوال يقع التشكيك في الحكم الوارد في كتاب الله ما لم يوجد حديث يصدّقه. فبعد أن كان كتاب الله هو المهيمن على كل كلام وحتى على كل كتب الله السابقة عليه, صار الحديث الذي يرويه فلان وعلان من الآحاد مهيمن على كتاب الله. ولذلك وبالرغم من مئات إن لم يكن آلاف الأدلة من كتاب الله على عدم المعاقبة على البيان, ستجد أحاديث تؤيد المعاقبة بل القتل على البيان, فتجد آيات تذكر أن قوماً سبّوا رسول الله ولم يأمر الله بمعاقبتهم ومن المقطوع به أنهم لم يعاقبوا حتى حسب الروايات الصحيحة, لكن تجد حديثاً هنا وحديثاً هناك يذكر أن فلان أو فلانة سبّت رسول الله فتعرضت للقتل وأهدوا دمها, فبأي الاثنين سيأخذوا؟ طبعاً بالحديث المصنوع دون الآية التي أنزلها الصانع جلّ وعلا. وقس على ذلك في كل باب آخر من أبواب البيان, حتى يصير الشعر نفسه سبباً لهدر لسان الشاعر وحبس الشاعر في بئر وإدخاله السجن. وهلم جرّاً. وبالرغم من عدم وجود ولا آية تعاقب على ترك الإنسان لدينه وأخذه بدين آخر, بل كل الآيات الواردة في كتاب الله تقول بالتصريح وبالتلميح بضد ذلك تماماً, فإنك ستجد حديثاً يقول بقتل من يترك الدين, وحتى بالرغم من وجود أحاديث أخرى تدل على عدم قتل من يمارس جوهر "صبأ محمد" فإنك ستجد الشائع هو نبذ كتاب الله وراء ظهورهم ونبذ الأحاديث التي تعارضهم والأخذ بالحديث الواحد المفرد المبهم إن كان يؤيد مسلكهم. وقس على ذلك. النبي صلى الله عليه وسلم في مكة كان يجادل المخالفين له في الدين, ويسفه أباءهم وأحلامهم, ويطعن في آلهتهم وينسبهم إلى العدم. فبدلًا من الاكتفاء بالتكلم معه ورد القول بالقول, نجد أن قريشاً تسعى في قتل رسول الله أو نفيه من الأرض أو معاقبته بصورة من صور العقوبات غير الكلامية التي تتناسب مع عمله. بعبارة أخرى, سيردوا القول بفعل. سيقابلوا الكلمة بالعنف. حسناً, فهل سنجد مثل هذا الأمر بعد ذلك في قريش الجديدة؟ نعم, بالضبط, أخوه التوأم السيامي الذي لا ينفصل عنه. ستصير المجادلة زندقة, والتكلم في العقائد الدينية مروق ومن أقرب الطرق إلى المشنقة, وتسفيه الآباء طعن في السلف الصالح ومخرج من الملة, وتسفيه الأحلام اعتداء على الأشخاص, والطعن في العقائد من باب الإلهيات ستصير كفراً وردة

وتفرقة بين الأمة تهدر دم صاحبها والكريم فيهم من يعطيه فرصة بالاستتابة. القول سيقابلونه بفعل, والكلمة اللطيفة ستُقابَل بعقوبات عنيفة. حذو القذّة بالقذّة...لكن هذه المرة بأمر من رب العزّة ! باختصار: فرعون سيُلقي الصولجان من يده ويلبس العمامة ويمسك السبحة.

(فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم) لماذا هاجر إبراهيم؟ لنفس السبب الذي لأجله هاجر سيدنا جعفر إلى الحبشة ونبينا محمد إلى المدينة, ولنفس السبب الذي يهاجر فيه كل حر وصاحب علم وفكر, أي لأن بلاده فيها معاقبة تقع على الأموال والأبدان بسبب البيان والأديان وأفكار الأذهان. المكان الذي لا توجد فيه هذه المعاقبة هو حقيقة (مهاجر إبراهيم). جوهر (مهاجر إبراهيم) واحد لكن صوره تتعدد. الأرض ليست بالتراب لكن بما يحدثه فيها الأرباب. ولو كانت الأرض بذاتها, لما أمر الله نبيّه بالهجرة من مكة إلى الحبشة أو المدينة. نعم, للأرض خصائص, لكن الخاصّية الكبرى التي تهم الإنسان من حيث هو إنسان هو ما يحدثه عليها أرباب السلطة فيها. الحبشة صارت خير من مكة في زمن لأن مكة كان ملوكها يظلمون الناس بينما الحبشة فيها ملك لا يظلم عنده أحداً. هذا لا يعني أن نبني كعبة في الحبشة, لكن يعني أن الإنسان خير له أن يعيش في الحبشة والمدينة من مكة, في ظل ذلك الوضع. فإذا تغيّر الحال كما حاصل, عاد ظاهر مكة وباطنها شيئاً واحداً. ولو تغيّر الحال, لتغيّر الحكم. وصف موسى الأرض التي عليها الجبارين فقال "ادخلوا الأرض المقدسة". هذا بالرغم من أن فيها "قوماً جبّارين". فهي مقدسة بالرغم ممن فيها, فمن هذا الوجه تبقى خاصّية الأرض والقدسية والبركة فيها مهما حصل عليها. فحياة الإنسان على الأرض شيء, وخصائص الأرض شيء آخر. لابد من التفريق بين الاثنين وعدم الخلط, وما أكثر الخلط. البعض يظن لأن الأرض ذات خاصّية قدسية وبركة فهذا يعني أن البقاء فيها حتم مهما يحصل, وهذا إنكار لمبدأ الهجرة الثابت في الكتاب والسنة الصحيحة. والبعض الآخر يظن لأن المظالم والمفاسد تقع على أرض فهذا يعني أنه لا خير فيها ولا بركة ولا قدسية حتى لو شهد بذلك القرءان وأهل التحقيق والعرفان, وهذا إنكار لروح الكتاب ومكاشفات وبيانات أهل الروح. قد تكون مقدسة وعليها الجبارون, وقد تكون مدنسة وعليها الصالحون, وقد تكون مقدسة وعليها الصالحون, وقد تكون مدنسة وعليها الجبارون. مع العلم أن تدنيس الأرض لا يكون لذاتها أبداً إذ الأرض كلّها للنبي وورثته مسجداً وطهوراً, لكن يلحقها التدنيس لأسباب عرضية يمكن إزالتها وتغييرها. بناء على ذلك, (مهاجر إبراهيم) تدل على أرض وحكم. أرض معينة, وحكم إنساني على تلك الأرض. والعبرة الأساسية والجوهرية هي بالحكم الإنساني المعمول به في تلك الأرض, وهو حكم يتميّز بأمرين اثنين قبل أي شيء آخر وهو خلوّه من الأسباب التي أدّت إلى الهجرة من الأساس, أي لا عقوبة على البيان ولا على الأديان, كائناً ما كانت بالنسبة للحكام واختياراتهم الشخصية والسائد في الناس.

(فخيار أهل الأرض...يبقى في الأرض شرارها) وجود خيار وشرار تمييز وتفريق كما هو ظاهر. لكن السؤال: هل هذا التمييز ضروري؟ وإن نعم, فمن أي وجه ضرورته؟ ألا يمكن أن يكون كل الناس خيار أو كل الناس شرار؟

في اللحظة التي تضع فيها تصوّراً للكمال, أو تعتقد بأن سبباً ما سيجعلك في راحة وراحة أكبر من التي أنت عليها أو يجعلك في رفعة وفي رفعة أعلى من التي أنت فيها, بمجرد ذلك, وهذا أمر لا مفر منه ولا يخلو منه إنسان مطلقاً, فوراً ستجد عقلك يرى الخير والشر, وبالتبعية ستعتقد بأن الناس الذي يوافقون الخير هم "خيار" أهل الأرض, والذي يوافقون الشر هم "شرار" أهل الأرض. والخير درجات

والشر دركات. ومعيار الخير والشر بالنسبة للإنسان, لا محالة, يدور حول حقيقة الراحة والشعور بالرفعة. هذا انكشف لنا من تأملنا في النفس.
الآن, اقرأ ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرار, فإنه لم يعرف الخيار لكن ذكر الشرار فقط في هذا الحديث, أي تم تعريف الخيار بضدّهم وهم الشرار. (ويبقى في الأرض شرار أهلها) وذكر ثلاثة أوصاف: (تلفظهم أرضهم وَ تقذرهم نفس الله وَ تحشرهم النار مع القردة والخنازير). تلفظهم وتقذرهم وتحشرهم. ولاحظ أنه بدأ بذكر الأرض ثم ذكر نفس الله, أي سار من الأسفل إلى الأعلى, ثم ذكر النار ومعية القردة والخنازير وهو مفهوم برزخي بين الأسفل الأرضي والأعلى الإلهي, وهو مقام ضرب المثل, إذ المثل يجمع بين الأعلى والأدنى وبين المجرد والمجسد وبين العقلي والطبيعي, وكذلك حين ذكر حشرهم "مع القردة والخنازير" فقد ضرب مثلًا لهم بذلك إذ يحشر الإنسان مع من يحب وإنما يحب من كان على شاكلته وشبهه, فالمعية هنا تشير إلى المشابهة النفسية والمشاكلة القلبية, ولأن حالتهم النفسية تشبه حالة القردة والخنازير حُشروا معهم. وعلى ذلك, يكون النبي قد عرّف الشرّ بذكر العوالم الثلاثة, العالم الأدنى والعالم الأعلى والعالم الأوسط. هذه نتيجة, والآن التفصيل.
ما معنى (تلفظهم أرضهم)؟ "تلفظهم" ترمز إلى الرفض, فالإنسان مثلًا يلفظ ما يكرهه ويمجّه ولا يريده, أي هو تعبير عن الكراهة. والكراهة تعبر عن المخالفة بالذات أو بالغرض, إذ قد تكره الشيء لمخالفته لذاتك وطبعك, وقد يكون مخالفاً لذاتك لكن لك فيه غرض ينفعك وتريده وتتوهم فيه المصلحة فتقبله وتحبه لتأديته لذلك الغرض أيّاً كان. الأرض من حيث كونها مادية لا تلفظ الإنسان ولو كان أكبر شيطان, لأن للإنسان اتصال بالأرض من حيث أرضيته أي ماديته, ثم لا نستطيع فهم "تلفظهم أرضهم" بالمعنى الشائع للّفظ إذ ستلفظهم إلى أين ! فهذا الاحتمال ساقط. لكن للأرض جوانب أخرى. إحداها أنها مسلمة لله. "قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين". وشرار الخلق يعصون الله, ويكفرون به, بالتالي تلفظهم الأرض لمخالفة هذه الحيثية من ذاتها. جانب آخر للأرض يكمن في غرضها, فإن الأرض لها أغراض, والدور الأساسي للإنسان بالنسبة للأرض هو أنه خليفة الله فيها, "إني جاعل في الأرض خليفة". ونور الخلافة وروحانيتها وعلم الأسماء الآدمية حين يشعّ في الأرض تتغذى الأرض من حيث روحانيتها, ولذلك ورد أن نظام الطبيعة سيبقى ما دام في الأرض من يذكر الله وأن الساعة لا تقوم إلا على "شرار الناس" وهم الذين لا يقولون "الله الله". غرض الأرض من الإنسان ذكر اسم الله فيها, وما يتفرع عن هذا الأصل الأكبر. وشرار الخلق أهل غفلة عن الله ويكفرون بكتب الله التي هي نور العالم الروحي في الأرض وللأرض, فينتج عن ذلك مخالفة غرض الأرض من الإنسان فتكرهه إلى حد أنها تريد طرده من عليها, "تلفظهم أرضوهم".
(وتقذرهم نفس الله) لم يقل: يقذرهم الله جل وعلا. لأن الله خلق الكل. لكن قال (نفس الله). نفس الله مثل روح الله مثل بيت الله. المقصود بها موجود من الموجودات العالية والشريفة التي هي مجلى عال وفي بعض الحالات مباشر لله تعالى. أي هو موجود من لدن الله تعالى. هذا تأويل, وعليه يكون "نفس الله" عبارة عن موجود نوراني وهو أعلى حقيقة خلقها الله في مراتب العالَم. قال النبي صلى الله عليه وسلم "أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر" أو "أول ما خلق الله العقل" أو "القلم". وكلّها صحيحة من حيثيات مختلفة. فالمخلوق الأول هو نور وهو عقل وهو قلم وهكذا لكن من جهات مختلفة, ويجمعها كلّها اسم "الروح". تأويل آخر, اعتبار نفس الله بمعنى عين الله واسمه, والمقصود الأسماء الذاتية لله تعالى على اعتبار أن "نفس" تعني ذات الشيء وحقيقته العينية. (تقذرهم) تدل أيضاً على الرفض والاحتقار

والكراهة, وهي إما بمخالفة الذات أو الغرض. فالمقصود يصبح هكذا: شرار الخلق صفاتهم أبعد ما تكون عن الروح, ومن شدة كثافتهم وظلمتهم صاروا كأبعد ما يمكن عن اسم الله تعالى, إذ يعرج الإنسان بالتجريد ويهبط بالتجسيد, فكلما علا كان ألطف وكلما سفل صار أكثف. الحاصل: شرار أهل الأرض أبعدهم عن الروحانية وعن ذكر الأسماء الإلهية, وينتج عن ذلك استغراقهم وتماديهم في القذارات المادية والمعنوية بالضرورة الحتمية.

(وتحشرهم النار مع القردة والخنازير) ما سبق يكشف عن سبب هذا الحشر, إذ الحشر نتيجة ما كان عليه قبل الحشر. ولذلك ختم بذكر الحشر. فلأنهم لم يعودوا نوراً للأرض وفي الأرض فقد صاروا ناراً تفسد الأرض وتحرق روح وحتى صورة الطبيعة. ولذلك تحشرهم النار. ولأنهم ابتعدوا عن الروح وعقل النبوة والكتب الإلهية فقد صاروا بمثابة القردة, ولذلك ستجد شرار الخلق هؤلاء يتشبهون بالقردة بل-كما هو الحاصل اليوم-يرون القردة كآباء أو أبناء عمومة لهم, وهذا متوقع, إذ بعد المسخ يأتي التبرير. وسينطمس فيهم نور العقل ويبقى شيء من ظلاله في الذهن والدماغ ولو تأملت ستجد أن همومهم "الفكرية" لا تتجاوز مقاصد القرود من عيشها. ولأنهم ما عادوا ينظرون إلى الأسماء الإلهية العلوية ويذكرونها ويتعلّمونها, فأعينهم صارت مثل الخنزير لا تنظر إلى السماء, وهمهم الذي لا يكف هو الماديات بأخسّ المعاني ولو بأقذرها, وذلك بانحسار الاهتمام بالكيفية والمبالغة شيئاً فشيئاً بالكمية, والاهتمام بما يشبع البطن أكثر مما يشبع القلب, ومع الوقت تصير حياتهم مثل زريبة الخنازير, همهم التسافد والأكل بلا حد. ولأنهم سيكونوا قد غرقوا في هذه اللعنة, فالنتيجة هي الاعتياد على ذلك حتى يصير هو صلب الحقيقة بل لا حقيقة غيرها, وبعد حصول هذا التمكين يتحدد مصيرهم الأبدي والثمرة (تحشرهم النار مع القردة والخنازير).

بناء على ذلك, يمكن تلخيص حال شرار أهل الأرض في هذه النقاط:

الأولى الإنغلاق على أي تغيير. وسيكون ذلك لأنهم يظنون بأنهم قد بلغوا نهاية العلم والتحقيق. "فرحوا بما عندهم من العلم". وهذا في باطن كلمة "تحشرهم".

الثانية النظر إلى الأرض كشيء مادي بحت. فيتم التعامل معها ك"مورد طبيعي" الغاية الوحيدة منه وفيه هي استهلاكه, وهذا في باطن كلمة "النار". وعلى إثر ذلك ستحترق الطبيعة شيئاً فشيئاً.

الثالثة اعتبار الذهن مجرد وسيلة لتحصيل الأكل والتناسل وأغراض القردة من لعب وقفز عشوائي في غابة هذا العالَم. فالذهن شيء "فوق" غايته الوحيدة أن ينتج شيئاً "تحت". وليس مثل العقل الذي يعرج بالإنسان من تحت إلى فوق ويعقله أي يربطه ويصله ويوحد بينه وبين الأنوار العلوية والنور الإلهي.

الرابعة الغفلة عن الأسماء الإلهية والحقيقة الربانية جملة. وإنكار النبوات والرسالات والآخرة وعالم الملائكة بالتبعية.

الخامسة اعتبار حياة الخنزير هي الحياة المثلى, تسافد بلا قيد, أكل بلا حد, والقذارة جزء أساسي وجوهري من عيشهم وقد قبلوه ورضوا به وسلّموا بضرورته. أي تحويل مدنهم إلى زريبة خنازير.

ليس بالضرورة أن يحصل كل ذلك دفعة واحدة, بل المعلوم أنه لن يحصل دفعة واحدة. لكنه سيتدرج, وخطوة بعد خطوة سيصلون إلى أدنى نقطة ممكنة من الظلمة, ولا يمكن بلوغ الظلمة المطلقة لأن الوجود نور والنور ليس ظلمة, لكن قد ينحسر النور إلى حد كبير جداً يكاد يقارب العدم إلا أنه لا يصل إليه.

بعد معرفة ما سبق, نبدأ بتفهّم معنى (مهاجر إبراهيم). فالخصائص التي تكون في بلاد شرار الناس تضاد الخصائص التي تكون في مهاجر إبراهيم. هذا جوهر مهاجر إبراهيم.

وأما تحديد هذا المهاجر على الأرض, فقد وردت آية تذكر إبراهيم ولوط وقالت ""إلى الأرض التي باركنا فيها". وهذا التعبير "باركنا فيها" منسوباً إلى الأرض ورد أيضاً في بني إسرائيل "أورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها" ومعلوم من سورة المائدة أن الأرض التي أورثهم الله إياها هي التي قال لهم موسى عنها "ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم". وذكرت أيضاً في قصة سليمان. فمهاجر إبراهيم هو تلك الأرض المقدسة. ولا يوجد في كتاب الله تسمية للأرض المقدسة بغير هذا الاسم. فلم يذكر القرءان اسم فلسطين أو الشام أو بيت المقدس أو إيلياء أو غير ذلك من أسماء وردت في الأحاديث والروايات والآثار. لماذا؟ لأن القرءان يتكلّم عن الجواهر لا المظاهر. أما المظاهر وتعيين بعض مصاديقها ومنازلها فيحصل عادة في الحديث النبوي والآثار عن العلماء وأهل الله. فكتاب الله فوق الزمان والمكان, والروايات في الزمان والمكان, هذا هو الأصل العام.

لماذا سمّاه (مهاجر إبراهيم) ولم يستعمل أي تسمية أخرى؟ الجواب: لأن لإبراهيم علاقة مهمة في المعنى الذي يذكره الحديث. أي حين تهاجروا كونوا مثل إبراهيم, وحين تصلوا هناك تذكروا سبب هجرة إبراهيم وأقيموا الأمر على القواعد التي وضعها إبراهيم. هذا مفتاح ضعه في بالك حين تدرس قصة إبراهيم من القرءان, واربط ما تخرج به بهذا الحديث وستزداد بصيرة فيه إن شاء الله. وحيث أن هذا الكتاب ليس لدراسة وشرح قصص الأنبياء بالمعنى الواسع, فنكتفي بهذه الإشارة والتنبيه على مقصد النبي من ربط إبراهيم بهذا المهاجر. ولو أراد النبي أي بقعة أرض أو بلدة لسمّاها بالاسم المشتهرة به كما قال عن القسطنطينية مثلًا "لتفتحن القسطنطينية". ولو أراد لقال هنا مثلًا: فخيار أهل الأرض ألزمهم لفلسطين أو ألزمهم للشام أو ألزمهم لكذا أو كذا حسب الاسم الشائع والمتعارف عليه في ذلك الزمان. لكن النبي لم يفعل. وأشار إلى إبراهيم وهو أحد الأسماء في القرءان, وأشار إلى مهاجره حتى نرجع إلى كتاب الله وننظر في سبب هجرة إبراهيم ونفهم حقيقة مهاجره ولا نتعلق بالصور بل نخلص إلى الجوهر. من مضيعة الوقت بل من التحريف والغباء الشديد المستحكم أن تجد شخصاً يعتقد بجواز المعاقبة على البيان والمعاقبة على الأديان لكن لأنه يسكن في البقعة الأرضية المسماة القدس في فلسطين يعتقد بأنه من "خيار أهل الأرض" بحكم هذا الحديث الذي أثبت أن "خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم". هذا ليس ديناً ولا فهماً, هذا عبث عنصري يشبه العبث اليهودي الذي يأخذ بالصور ويدع الجوهر. وهو نوع من الوثنية في الحقيقة. فتأمل ذلك.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

*****

-2-

عن أبي ذر قال: قلت "يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أوّل" قال (المسجد الحرام) قلت "ثم أيّ" قال "المسجد الأقصى" قلت "كم كان بينهما" قال (أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعده فصله فإن الفضل فيه).

أقول:

أوّل ما يلفت النظر في هذا الحديث هو السؤال عن الأولية والزمن, ألا تبدوا هذه الأسئلة كأنه لا قيمة حقيقية لها؟ فأي فرق بين أن يكون هذا المسجد وضع أول أو ذاك؟ وأي فرق لو كان بين وضع الأول والثاني (أربعون سنة) أو أكثر أو أقل؟ لماذا لم يقل النبي لأبي ذر: أقبل على شأنك يا أبا ذر ودع ما لا يعنيك. فلولا أن السؤال عن الأولية والكمية نافع, لما أجابه رسول الله بذلك الجواب. فما هو وجه النفع؟

الأصل في الأرض أنها مسجد, كلّها مسجد, والطبيعة هي مسجد الله الأكبر. وهذا الأصل مشهود له بقول النبي "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" و "له أسلم من في السموات والأرض". ولذلك قال في نفس الحديث "ثم أينما أدركتك الصلاة بعده فصله", وفي رواية أخرى لنفس الحديث أن أبا ذر سأل "ثم أي" مرة ثانية فقال النبي "ثم حيثما أدركت الصلاة فصلّ فكلّها مسجد" وفي رواية "فهو لك مسجد". إذ الأصل في المسجد أنه موضع نزول النور الإلهي إلى الأرض وعروج أهل الله إلى السماء, وهي المواضع التي يذكر فيها اسم الله ويسبح فيها. وحيث أن الذكر والتسبيح ممكن في كل الأرض, فمن هذا الوجه الأرض كلها مسجد. وحيث أن الباب الحقيقي للسماء هو قلب الإنسان, فأينما كان الإنسان فهو في مسجد. هذا هو الاعتبار الكلي الأصلي. ولكن.

ولكن يوجد اعتبار آخر تفصيلي. حين رأى أبو ذر وجود بقع خاصة في الأرض هي المساجد, مثل المسجد الحرام في مكة. فالطارئ على الأرض هو تخصيص مكان كمسجد وليس وجود المسجد من الأساس. والحادث يحتاج إلى تفسير. فهنا مسألتان: ما هو أوّل ما حادث, وما سبب حدوثه. الحديث محل نظرنا الآن يجيب عن المسألة الأولى فقط. وتوجد آيات وأحاديث أخرى تشير إلى جواب المسألة الأخرى.

بذلك نفهم سبب نشوء الاهتمام بأوّل مسجد وضع في الأرض في عقل أبي ذر. هذا وجه.

الوجه الآخر أن الأصل في الطبيعة بالنسبة للإنسان الظلمة, والنور طارئ عليها من العالم العلوي. فالأرض كلها ظلام بالنسبة للإنسان. فحين هبط الإنسان إلى الأرض, احتاج إلى وجود مراكز يكون فيها إشعاع النور مستمراً. إذ بقية بقاع الأرض إما ستكون خارج سيطرته, أو إن كانت تحت سيطرته سيخصصها للقيام بأعمال المعيشة فيتم اقتطاع هذه القطعة للحمام وتلك للنوم والثالثة للنجارة والرابعة زريبة بهائمه وما أشبه. فإن لم يخصص قطعةً لأعمال الذكر والتسبيح وتدارس كتب الله فسيقع في حرج, والتخصيص مفيد كذلك من حيث إخلاص النية حين الذهاب لذلك الموضع ومن حيث تنظيفه بنحو يؤهله للتفرغ للنظر العقلي والعمل القلبي وكذلك لاجتماع الناس فيه لأمر العلم والإيمان بالخصوص وبالمعنى الأخص لذلك. فوجب لهذا السبب تخصيص بقاع في الأرض تكون مساجد لله. وحيث أن الأصل في الطبيعة عدم وجود بقعة خاصة لمثل تلك الأعمال الدينية, فالطارئ على الطبيعة هو وجودها, والطارئ الحادث له بداية وله علّة كما تقدّم, فحينها يرد السؤال. وأهمية معرفة أول المساجد تساوي أهمية معرفة أول أهل الله في الأرض. ولذلك سيرد في روايات أخرى أن باني الكعبة هو آدم. فالمقصود أن الإنسان يريد مركزاً لأعمال الروحية والعقلية في الأرض. وتنعكس هذه الضرورة حتى في الملحدين الذين يخصصون بقاعاً في الأرض للقيام بأعمالهم الفكرية. والتفكير بعض أعمال الروح. فالإنسان لا يخلو من الاهتمام ببيت للنور بالمعنى الذي يناسب علمه وإيمانه وتخمينه.

الوجه الثالث أن الأوّل يدلّ على الأكمل. ولذلك يقول النبي "وأنا أوّل المسلمين". وتم تفضيل "السابقون الأوّلون" على غيرهم. وعظمة المخلوق الأول على من بعده. بيان ذلك: أن الله يخلق الأعظم فالأعظم بالتسلسل, لأنه تعالى هو الأعلى, فلا ينشأ منه إلا الأعلى فالأعلى. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان الأول في الخلق وإن كان الآخر في البعث, لماذا كان الآخر في البعث؟ حتى يتم له الجمع بين حضرتي الاسم الأول والآخر, فهو خليفة الاسم الأول من حيث خلقه, وخليفة الاسم الآخر من حيث بعثه, ولو كان الأول في البعث لما حصّل هذا الكمال الجمعي الذي هو السمة الأساسية للمقام المحمدي. وكذلك لم يبعث فقط بالشريعة ولا فقط بالطريقة, بل جمع الشريعة والطريقة حتى يكون خليفة للاسم

الظاهر وللاسم الباطن, فورد في كتابه "ذروا ظاهر الإثم وباطنه". فجاء بالذكر والأمر, الذكر نور الباطن والأمر نور الظاهر. فحين تقول "الأول" أنت تقول "الأكمل". وهذا شاع حتى في اللغة العامّية شرقاً وغرباً, حين يتخرج شخص بأعلى درجة من بين زملاءه يقولون "فلان الأول على الدفعة" ولا يقولون: فلان أكبر أهل الدفعة أو أكمل أهل الدفعة أو أحسن أهل الدفعة, وكلها تعبيرات صحيحة في نفسها وتدل على المطلوب, لماذا لا يقولون ذلك؟ لأن "الأول" يشمل مفهوم الأكبر والأكمل والأحسن, وأصول اللغة والشائع عادة ما تكون علوم الحقيقة, وإن لم يشعر أكثر الناس بذلك.

بناء على ذلك لا نستغرب من كون أول مسجد وضع في الأرض هو أفضل المساجد في نفس الوقت, أي المسجد الحرام. بالتالي, حين سأل أبو ذر "أي مسجد وضع في الأرض أول" فمعنى "أول" من سؤاله يشمل معنى الأفضل, ومن النافع معرفة الأفضل حتى ينال الفضل بالصلاة فيه ونيل بركته. وظهرت هذه الفائدة من السؤال في نهاية حديث النبي حين بيّن أن العبرة من السؤال وإجابته عنه هي إقامة الصلاة (ثم أينما أدركت الصلاة). فجواب النبي معلومة من أجل العمل, والعمل سيعتمد على المعلومة.

يرد هنا سؤال نذكره لكن إجابته إن شاء الله في ذيل حديث آخر: إن كان الأول أفضل, فالثاني أقل في الفضل لكن الثاني أفضل من الثالث, إلا أن المعلوم أن مسجد النبي وقد جاء بعد المسجد الحرام والأقصى ومع ذلك هو خير من الأقصى من حيث فضل الصلاة فيه, ألا يكون هذا نقضاً للقاعدة؟ والجواب المبدئي هو أن الإشكال لا يقع على أفضلية الأول, وأما تفسير سبب أفضلية مسجد النبي على المسجد الأقصى فأقل ما نقوله في هذا المقام أن لها حيثيات خاصة وليس من كل حيثية, ولو كان من كل حيثية لحصل الإسراء من المدينة وليس من الأقصى. وندع التفصيل لمحلّه بإذن الله.

حسناً, هذا بالنسبة للسؤال عن الأولية. فماذا عن السؤال عن الكمّية؟ ما وجه النفع في سؤال أبي ذر "كم كان بينهما"؟ وقول النبي صلى الله عليه وسلم (أربعون سنة).

أربعون سنة هو السنّ الذي يبعث الله عليه الرسل عادة. والرسول له إعداد باطني ثم يخرج على الناس. وهذا الإعداد يأخذ أربعين سنة, ولذلك يبعثون بعدها كما بعث النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة. المسجد الحرام لأنه موضع منعزل في وسط صحراء العرب, فإنه يرمز إلى الإعداد الباطني والخلوة والانقطاع إلى الله والتبتل إليه وإرادة وجهه لغير أغراض دنيوية إذ ما في مكة زرع ولا ثراء ذاتي وجعلها كذلك حتى لا يطلبها إلا من يريد وجهه خاصة كما ورد عن سيدنا علي عليه السلام وغيره من الأئمة الأعلام. أما المسجد الأقصى فإنه في بقعة الانفتاح على بقية البقاع, ففيه تجتمع الفصول والهيئات الأرضية ويمكن الاتصال منه ببقية الأراضي عبر البر أو عبر البحر, ولذلك يرمز إلى البعثة والرسالة للناس كافة "باركنا فيه للعالمين". ولذلك كان المسجد الحرام فقط للمؤمنين, لكن المسجد الأقصى للعالمين. المسجد الحرام للخاصة, المسجد الأقصى للعامّة. بينهما اتصال في المعنى إذ لا يخرج شيء للعامة إلا بعد جذوره في مقام الخاصة, لكن بينهما انفصال من حيث الخصوصية والأولية والتسلسل في الظهور, وذلك قلنا أن الحرام يدل على عمل القلب والإعداد الباطني والأقصى يدل على عمل الجسم والبعث الظاهري. وعلى ذلك, يكون السؤال عن (كم كان بينهما) هو سؤال عن فترة الإعداد الباطني قبل البعث الظاهري, والجواب (أربعون سنة). في وضع المسجد كما في بعث الرسل, ومن هنا ستجد اتصالاً بين بناء المساجد وبين الرسل, فالحرام وضعه آدم والأقصى أيضاً آدم والمدني النبي صلى الله عليه وسلم. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

*****

عن البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم إلى المدينة نزل على أجداده-أو قال أخواله-من الأنصار, وأنه صلى قِبَل البيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً, وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت, وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر, وصلى معه قوم, فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال "أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة" فداروا كما هم قبل البيت.

أقول:

أ-إعداد المهجر للعلماء.

ذكرت الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة (نزل على أجداده) أو (أخواله) من الأنصار. والإشارة أن وجود الأجداد أو الأخوال أي الأقارب المحبين للشخص يعني حصول استقرار أكبر في تلك المدينة. والاستقرار والسلام هو المطلب الأساسي للعلماء, ولذلك ورد التشديد في الانتقال من حالة السلام إلى حالة الحرب في كتاب الله وجاء الأمر العام "ادخلوا في السلم كافة" و "إن جنحوا للسلم فاجنح لها". ونستفيد من هذه العبارة فكرة إعداد المهجر للعلماء. في كل زمان من أزمنتنا سيوجد بعض العلماء ممن يعاني في بلده بسبب تقنين البيان أو الأديان أو سطوة الأعداء والمخالفين له, ولابد على المسلمين ممن يعرفون بهذا العالم تحديداً أو على المسلمين إجمالاً إعداد أماكن لاستقبال كل عالم من العلماء المسلمين ممن يعرفونه شخصياً أو لا يعرفونه شخصياً, حتى يستطيع ممارسة عمله وعيش حياته بأمان واطمئنان بأكبر قدر ممكن فيسعد ويسعد من أسعده وينتفع الناس بعلمه وعمله. وليكونوا له كما يكون الأجداد أو الأخوال لقريبهم, لأن القرابة في الطريقة معنوية وليست جسمانية. فالنسب هو حب القلب, وحب القلب بحسب الشبه, والشبه بحسب الرؤية والإرادة, والرؤية والإرادة هي الدين, قال تعالى "إنما المؤمنون إخوة".

ب-قبلة النبي في مكة والمدينة وتفسير الاختلاف.

قبلة النبي في مكة كانت الكعبة وبيت المقدس على السواء, وكان يصلي من الوجه الذي يجعل الكعبة بين يديه وبيت المقدس كذلك. وهذا يرد على الذين يزعمون أن النبي كان يصلي لبيت المقدس دائماً ومنذ البداية. لأن أرض مكة تسمح باستقبال الكعبة وبيت المقدس في وقت واحد, فكان هذا هو الأفضل والأكمل.

لكن حدث الاختلاف حين ذهب إلى المدينة. لأن أرض المدينة لا تسمح باستقبال المسجد الحرام والمسجد الأقصى في آن واحد فكان لابد من الاختيار. وهنا تضارب العوامل. العامل الأول كان وجوب إظهار كون النبي محمد وإن كان عربياً قرشياً حسب نسبه الجسماني, ومعلوم مدى العصبية في القبائل العربية في ذلك الزمان بل وإلى هذا الزمان إلى حد كبير, فحين انتقل النبي إلى المدينة كان من الممكن أن يشك الناس أنه مجرد عربي قرشي اختلف مع قومه في أمر داخلي فيما بينهم وأراد الانتصار عليهم بالغرباء, الناس ما كانوا يعقلون الدعوات التجريدية كثيراً وكانت الشبهات القبلية أسرع فيهم من النار في الهشيم ولا يخفى قول أبي جهل في الباب. فهذا العامل يوجب إظهار أن دعوة النبي غير مبنية على العصبية القرشية المكية, وأنه مهووس بوطنه الأول مكة. ولأن هذا العامل جوهري وضروري, فحين ذهب إلى المدينة استقبل بيت المقدس. مع العلم أنه لا توجد آية في كتاب الله تأمر النبي باستقبال بيت المقدس, فالاستقبال كان أمراً غير قرءاني من الأساس لكن بتكليم إلهي من صنف آخر, إذ لا توجد آية تأمره بذلك الاستقبال. ومع العلم أيضاً بأن القبلة شأن ظاهري والعبرة في الصلاة استقبال وجه الله

تعالى كما قال النبي أن الله في قبلة المصلي وقال الله "أينما تولوا فثم وجه الله" هذا هو الأصل الأكبر وعليه المدار, لكن التقيد بقبلة واحدة حسب الصورة أمر ثانوي ولذلك لا يخدش شيئاً في الحقائق الكبرى للدين والصلاة سواء توجه إلى مكة أو بيت المقدس أو الأهرامات.
لكن بعد أن استقر في المدينة فترة كافية, 16-17 شهراً, وتبين للجميع أن النبي لا يتعصب لقبيلته في مكة, نشأ العامل الثاني الخطير, وهو دعوى يهود المدينة أن النبي مجرد تابع لهم ومتشبه بهم. فحينها نشأ طعن آخر في حقيقة دعوة النبي, وهو طعن يظهر عدم استقلاليتها وحقيقتها الذاتية, فكما أن العامل الأول كان سينسب الدعوة إلى قبيلة وقومية فالعامل الثاني سينسب الدعوة إلى طائفة دينية, كلاهما يخل بحقيقة الدعوة. فبدأ بمراعاة العامل الأول لأن الخطر فيه أكبر وعدد المفتونين به أكثر, ثم انتقل إلى العامل الثاني الذي نشأ حين صار في المدينة حيث الكثير من اليهود. ولذلك أمره حينها بالتوجه نحو المسجد الحرام.
وحيث لم يعد ثمة سبب للاختلاف في تفسير استقبال القبلة في الصلاة, لا التحيز لقبيلة ولا لطائفة, وإنما عن أمر الله تعالى, ثب الأمر على الأحسن والتوجه نحو المركز الأكمل وهو الكعبة.
الحاصل: من الخطأ الشائع القول بأن بيت المقدس هو "أولى القبلتين". الحق أن الكعبة وبيت المقدس كان القبلة الأولى الظاهرية, معاً حين كان الجمع بينهما ممكناً. ثم بيت المقدس لضرورة خاصة مؤقتة, ثم الكعبة لضرورة أخرى, واستقر الأمر على الكعبة لأنها الأولى بالاستقبال لأكثر من عامل سنذكره في محلّه إن شاء الله. مع كون القبلة الحقيقية الدائمة هي وجه الله تعالى والله في قبلة المصلّي. ومع كون القبلة الواحدة الظاهرية ليست شرطاً ضرورياً في صحة كل صلاة, فإن النبي كان يصلي النوافل على راحلته أينما توجّهت به لأن الأصل لا يقتضي وجود قبلة خاصة إذ "أينما تولوا فثم وجه الله", فجمعت الشريعة الكاملة بين أنواع القبلة الثلاثة: الأولى هي قبلة مطلقة حقيقية وهي وجه الله وهذه واجبة الاستقبال دائماً وفي كل صلاة. الثانية هي قبلة غير مقيدة بصورة خاصة وهي أينما توجهت الراحلة مثلًا وهذه في صلاة النافلة. الثالثة هي قبلة مقيدة بصورة خاصة وهي الكعبة التي ورد الأمر بالتوجه إليها في كتاب الله وهذه في صلاة الفريضة. والأكمل هو الجمع بين الأنواع الثلاثة في نسق واحد: فتستقبل وجه الله والكعبة وبيت المقدس في آن واحد إن استطعت.
ج- القبلة على الإعجاب.
قال الراوي عن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت) فصرفه الله نحوها بأمر ورد في الكتاب العزيز. القبلة هنا هي الصورة المقيدة الأرضية. وكما بينا من قبل, فإن الأصل في القبلة وجه الله والإطلاق, فلما كان أمر القبلة الصورية ثانوياً بالنسبة للأصل كان بالإمكان بناء أمرها على الإعجاب الشخصي بشرط ورود الإذن الإلهي. الإعجاب مبني على الطباع, والطباع مبنية على الطبيعة, والطبيعة فرع الحقيقة, وحقيقة النبي نور وهي الأكمل "هو الذي تم معناه وصورته", ولذلك كان إعجاب النبي سبباً لنزول الشريعة, لأن النبي من عين الحقيقة.
د-لماذا أول صلاة لمكة من المدينة كانت صلاة العصر؟
قال الراوي (وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر). الظهيرة تمام ظهور ضوء الشمس. العصر تشبه الفجر, فإنها وقت نزول الملائكة وصعودها بالأعمال. فالعصر باب مفتوح بين السماء والأرض. وهي الوقت الذي يسبق غروب الشمس ووقتها يمتد إلى قبل الغروب بركعة, ومعنى ذلك أنها تصل بين النهار والليل لأنها بين نهاية النهار وأول الليل, كما أن الفجر بين نهاية الليل وأول النهار, ومن هنا

التقابل بينهما في الحديث الشريف الذي ذكر تعاقب ملائكة الليل والنهار ونزولها في هذين الوقتين تحديداً.
الفجر يعبر عن مرحلة مكة. العصر يعبر عن مرحلة المدينة. لأن فجر الدعوة ودخول نهار الوحي على الدنيا قد بدأ من مكة, فالانتقال من ليل الجاهلية إلى نهار الإسلام صار في مكة. لكن من المدينة سيبدأ الانتقال من نهار الإسلام إلى ليل غربة الإسلام وحدوث الجاهلية الأخرى قال النبي في نهايات حياته في المدينة يخبر المسلمين عن ما سيحدث بعده "أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم" لاحظ أنه ذكر قدوم الليل من بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.
حين كان النبي بيننا, كان بالإمكان التوجه لبيت المقدس لأن النبي هو مركز الأمة الإنساني والمظهر الأتم القرءاني, فالمركز حاضر بأجلى صورة ولا تخطئه العين ولا يضل عنه المؤمن, ولذلك أمكن التوجه لبيت المقدس الذي يرمز إلى الظهور العالمي. لكن بعد النبي صلى الله عليه وسلم, أي بعد فترة المدينة المنورة بحضوره, ستأتي فترة الليل مرة أخرى, وهو ليل ضياع المركز الإلهي من حياة الإنسان, فوجب حينها التوجه واستقرار القبلة تجاه الكعبة في مكة حتى تكون كل ما تحمله الكعبة من دلالات حاضرة في وجدان المؤمن, هذا من حيث الظاهر, ومن حيث الباطن دلّ النبي المؤمنين في حديث إقبال الفتن كقطع الليل المظلم على المركز الحقيقي الجوهري للأمة وهو "كتاب الله" وأنه المخرج من تلك الفتن. فالفتن تبدأ بضياع المركز الإلهي من حياة الأمة. والمركزية لها مظهر رمزي ومظهر دلالي, الرمزي هو الكعبة, والدلالي هو كتاب الله. فجمع بينهما في الصلاة, لأن الصلاة تجمع بين الكعبة وكتاب الله "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب" والفاتحة تجمع الكتاب كلّه وتدل على جملته.
فإن كانت صلاة الفجر تعني استقبال النور الجديد, فصلاة العصر تعني الاستعداد بالنور لقطع الليل المظلم القادمة.
هـ- لماذا تعددت المساجد أيام النبي وأكثر من جماعة تصلي؟
نلاحظ في الرواية ذكر "أهل مسجد" كانوا يصلون في مسجد غير مسجد النبي وبغير إمامته الظاهرة لهم. ويوجد أكثر من شاهد على تعدد المساجد أيام النبي صلى الله عليه وسلم سواء من القرءان أو من الروايات. لماذا؟
أحد الأسباب الظاهرة التي قد يذكرها البعض هي صعوبة ذهاب الكل إلى مسجد النبي في كل صلاة. وهذا السبب وإن كانت له وجاهة من جهة, لكن من جهة أخرى قد ورد في حديث الرجل الذي يسمع النداء أنه عليه القدوم للمسجد. فإن أخذنا بهذا السبب لكن لا يمكن الاكتفاء به.
السبب الأكبر عندنا هو إعداد الأمة لتكون فيها أكثر من جماعة ولا تنحصر في جماعة واحدة. نعم, الأمة ككل جماعة واحدة. لكن داخل ذلك الكل توجد جماعات كثيرة. وحتى لا يستطيع أحد تدمير الأمة بضرب جماعتها الكلية, لابد من وجود جماعات كثيرة تعبر كل واحدة منها عن روح الكل وإن أخذت بلون خاص من الألوان التي تحتملها نخلة الإسلام كما أن التمور تختلف أصنافها لكنها تشترك جنسها العالي "التمر". ومن هذا المنطق كان النبي يؤاخي بين المهاجرين والأنصار, وكان يؤاخي بين الواحد والواحد منهما, هذا بالرغم من وجود القاعدة الكبرى للأخوة "إنما المؤمنون إخوة". الذي يرى التضارب بين الكليات والتجليات لا يعقل حق العقل. والاعتراض على وجود جماعات كثيرة في إطار الجماعة الإسلامية الكبرى يشبه الاعتراض على المؤاخاة بين فلان وعلان من الصحابة بحجة الإخوة الكبرى الشاملة لكل المؤمنين. العقل يعرف الكلية, لكن الطبيعة لا تحتمل إلا الخاصّية إذ لا يوجد فيها إلا المقيّد

والخاص, فلابد من الجمع بين القيد الكبير والقيد الصغير للحقيقة الكلية. القيد الكبير يتمثل في الجماعة الواحدة الشاملة للأمّة ككل وهذه الجامعة إمامها القرءان. والقيد الصغير يتمثل في الجماعات الكثيرة ضمن الأمة الواحدة وهذه الجماعة تختلف أصناف الإمامة فيها بحسب الشورى الحاصلة بين أهلها ومن يؤمرونه عليهم ويقبلونه لذلك. فإن حصل واجتمعت الجماعات الصغرى المحكمة لتكوين كيان أكبر واعي فحينها تكون الأمة قوية وراسخة في وحدتها.

و-لماذا صدقه الناس؟

أشير في هذا السؤال إلى الرجل الذي (مر على أهل مسجد وهم راكعون فقال "أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة) فصدقوه وعملوا بقوله فوراً (فداروا كما هم قبل البيت). وعلى هذه الفقرة توجد أكثر من إشكالية.

الأولى هي أن الرجل مبهم, وعلاقته بالذين يصلون غير معلومة. فهل كان المصلون يعرفونه بصوته أو ألقى الله في قلوبهم شيئاً جعلهم يصدقونه ولعل حضورهم في الصلاة التي هي نور أيدهم في ذلك, لعل الأمر كذلك. قد يقال: لأنه شهد بالله, صدقوه. نقول: لعله منافق يكذب على الله ورسوله ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. فليس كل من شهد بالله صادق, وإبليس حين قاسم ءادم استغل سذاجة أو لطف ءادم عليه السلام لجعله يصدقه فيطيعه. وقد أخبر القرءان وعلم الناس أن المنافقين لهم حضور وانتشار في المدينة وما حولها. ألم يكن من الأولى الانتظار حتى يفرغوا من صلاتهم ثم يبعثوا شخصاً إلى رسول الله ليتأكد من الأمر.

حل هذا الإشكال غير مفهوم إلا بافتراض أمور: الأول أن المصلين عرفوا الرجل وظنّوا فيه الصدق. الثاني مما أيد ظنّهم أنه شهد بالله, أي عرفوا أنه من المؤمنين الذين يستحيل عليهم الكذب على الله ورسوله. الثالث أنهم ما كانوا يرون تغيّر القبلة كتغيّر جوهري وحقيقي لصلاتهم, وكانوا يعلمون أن الأصل في القبلة الصورية هي مكة, فما وجدوا صعوبة تحول بينهم وبين الاستدارة تجاه مكة (تنبيه: لاحظ في عبارة "فداروا كما هم قبل البيت" وكونها تدل على كون الاتجاه إلى مكة وإلى بيت المقدس كان بحاجة إلى الدوران مما يعني عدم القابلية للجمع التي ذكرناها سابقاً. هذه المعلومة وإن كانت معلومة بمعرفة الموقع الأرضي لكل من البلدان الثلاثة لكنها ظاهرة أيضاً في النصّ لمن لا يعرف الموقع). وبناء على الاعتبارات الماضية, لا يمكن الاستدلال بهذا الحديث على حجّية خبر الواحد في كل مسألة ورواية. بل لابد من توفر ثلاثة عناصر على الأقل: 1) معرفة الراوي إلى حد تحصيل حسن الظنّ بإيمانه بالله ورسوله 2) أن يشهد بالله نصّاً وصراحة على أنه سمع أو شاهد الشيء من رسول الله أو ممن روى عنه 3) أن يوافق الأصول الثابتة في كتاب الله تعالى وما ثبت بالعلم والبرهان بمستوياته في مضمون روايته. فإن توفّرت هذه العناصر, أمكن قياس خبر الراوي على قول هذا الرجل المبهم في هذه الرواية. وإلا فلا. باختصار: الوثاقة والشهادة والموافقة. وإلا نردّ خبر الواحد أو نعلّقه إلى أن يتبين حال روايته بحسب متنها.

الإشكالية الثانية, ليس في نصّ الراوي أمر وإنما هو خبر. تأمل قوله (أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة). لكن حين استمعوا لهذا القول قاموا بفعل وهو الاستدارة إلى مكة. ليس في هذا النص مثلًا: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله قبل مكة وقد أمركم بأن تستديروا الآن قبل مكة, مثلًا. أي لا يوجد أمر من الرسول يقضي باستدارة الشخص قبل مكة حتى لو كان في منتصف صلاته. الراوية خبر وليس أمراً, فلماذا عاملوها كأنها أمر. ثم لم يحدد الراوي ما هي الصلاة

التي صلاها مع رسول الله قبل مكة, لعلها صلاة أحدثت أو نافلة أو صلاة جديدة أو كانت صلاة بمعنى الدعاء أو أي احتمال آخر, كيف عرفوا أن المقصود بـ (لقد صليت مع رسول الله) هو صلاة الفريضة تحديداً. ثم ليس في كلام الراوي أن صلاته مع رسول الله كانت في اليقظة أو في المنام, فمن المعلوم أن الشخص قد يفعل الفعل في المنام ورؤية الرسول في المنام حق فيصدق القائل (لقد صليت مع رسول الله) إن كان رأى ذلك في المنام, لكن هل تتغير الشريعة بالنسبة لكل الناس كلما رأى أحد المسلمين الرسول في المنام يفعل شيئاً غير ما عرفوه من أمره. ثم ليس في النص زمن صلاته الرسول قبل مكة, فقد يكون من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة وخرج مع الرسول خارج مكة ولو بقليل وصلى مع الرسول قبل مكة في ذلك الوقت في موقع يتجه قبل مكة وبيت المقدس على السواء أو تجاه مكة فقط ويصدق في قوله (لقد صليت مع رسول الله قبل مكة). فإذن خلاصة الإشكالية: النص خبر وليس أمراً, وحتى هذا الخبر مبهم من حيث معنى الصلاة ومن حيث محل الصلاة ومن حيث زمن الصلاة. ومن حيث أمرية النص, ليس فيه نص على أن الرسول أراد من المسلمين تغيير قبلتهم عموماً, أو تغيير قبلتهم إن بدأوا الصلاة تجاه بيت المقدس وهل عليهم تغييرها أثناء الصلاة أو الانتهاء منها ثم إنشاء الصلوات الجديدة تجاه مكة, ولا يوجد في الحديث أن الرسول بعث هذا الرجل ليخبر الناس بتغير القبلة ولا حتى الرجل قرأ عليهم آية "فولّ وجهك شطر المسجد الحرام". النصّ من حيث هو خبر مبهم ومن حيث هو أمر غير مفصّل. فعلى أي أساس عمل المصلّون بهذا النصّ؟

حل تلك الإشكالات المتداخلة لعله يرجع إلى أمور محكمة عند الصحابة في ذلك الوقت: الأول قول النبي "صلوا كما رأيتموني أصلّي", لكن لا تكفي هذه المقدمة بل لابد من ضم مقدمة أخرى مفترضة هي أن سماع عمل النبي مثل رؤيته يعمله, إذ ليس في النص النبوي:صلوا كما رأيتموني أصلي وليصلي من بعدكم كما رأوكم تصلون مثلي وهلّم جرّاً إلى آخر الدهر. النص هو "صلوا كما رأيتموني أصلي" هذا الأمر لمن رآه صلى الله عليه وسلم. أما إجرائه على من يأتي بعده فلا يكون إلا بقرينة أخرى, وهو افتراض أن السماع الصحيح عنه مثل رؤيته, لكن سيتفرع عن صحة هذا الافتراض أن من يسمع حديثه الصحيح يكون مثل الصحابة, وهذا فيه شرف عظيم لأهل القرءان وأهل الحديث. ما يفترضه العلماء لحل الإشكالات والمسائل يصير بمثابة الأصول التي تتفرع عليها الفروع الواجب الأخذ بها إن كانت لازمة بالضرورة وبنحو معقول عن تلك الأصول. الأمر الثاني أنهم يربطون بين الخبر والأمر إن اتصل بالنبي, فما يعلمه النبي يعمله التابع وهو مكلف به فوراً إن لم يعلموا أمراً منفصلًا يمنعهم من سحب ما يجري على النبي على أنفسهم وإن لم يعلموا أمراً منفصلًا من النبي يوجب التراخي في تنفيذ الأمر. الأمر الثالث بالنسبة للإشكالات اللغوية على النص, أي الإبهام الذي أشرنا إليه, فيمكن تفسيره بالمجال غير اللغوي للنص اللغوي, وهو مجال موجود ولاشك, وكلنا يعرفه ويمارسه, وذلك أن الكلمات التي ننطقها تدل على ما نريده وإن كانت لا تحوي بألفاظها على ما نريده, وذلك حسب السياق الاجتماعي والعرفي ونبرة الصوت وشخص القائل وشخص السامع وكل ذلك يدخل في تكوين دلالة اللفظ, وبطبيعة الحال هذه الدلالات النصية غير النصية لن تكون ظاهرة في ذات النص لكن يفهمها أهلها وينقلون فهمها لمن بعدهم, وهذا الأصل المعقول والمفهوم عالمياً هو أحد أكبر إن لم يكن أكبر دليل على أهمية التراث والسند واتصال العلم بالنص على مر الزمن, وأن النص الذي له تلك الحيثيات غير النصية إن غاب العلم بتلك الحيثيات فقد الكثير من دلالته بل قد يفقد حقيقته ومقصوده ويصير فوضى معنوية وقد يصل الحد بالفوضى إلى أن يوجب علينا أخذ النص ثم نضرب به عرض الجدار.

الخلاصة: فضل بيت المقدس حسب ما بيناه يكون في أنه علامة على حقيقة وتجرّد الدعوة الإسلامية المحمدية من العصبيات القبلية والقيود القومية العربية. لكن يشير أيضاً إلى أن بيت المقدس سيكون سبباً لحدوث شبهة صلة الملل الأخرى مثل اليهودية بالإسلام, وتشير إلى الخلاف الذي سيحصل بين المسلمين واليهود عليها.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

...

-4-

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (لما توجّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا "يا رسول الله فكيف الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس" فأنزل الله تعالى "وما كان الله ليضيع إيمانكم".)

أقول:

أ-الإيمان في القلب, فأيا كانت هيئة ظهوره طالما أنها نابعة من إيمان ونية التوجه إلى الله تعالى بناء على أمر الله تعالى, فهذا الإيمان لا يضيعه الله, "وما كان" أي ليس من شأن الله تعالى أن يضيع هذا الإيمان, إذ "كان" تشير إلى الماضي بالنسبة لمن يسكن في الزمان, لكن تشير إلى الحقيقة الذاتية الأزلية غير المتغيرة للمتعالي عن الزمان. معرفة الله من حيث هو الله تكشف عن حقيقة أنه ما كان ليضيع إيمان المؤمنين. أما التوجه إلى بيت المقدس أو التوجه إلى الكعبة, فهو صورة وظل الإيمان, وليس حقيقة وأصل الإيمان.

ب- سؤال السائلين "يا رسول الله فكيف الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس" يكشف عن وجود قوم من الظاهريين والصوريين في الصحابة. أي الذين اعتبروا الصلاة ساقطة في حال تغيّرت الصورة. ومن جواب الله تعالى "ما كان الله" نعرف أن هذا الفريق منهم لم يكن يعرف الله حق المعرفة ولا ما هو من شأن الله في هذا الأمر. كأنهم اعتبروا الصلاة حقيقة خارجية, وهذه الحقيقة لها صورة واحدة, وهذه الصورة إن لم تتم من كل وجه بحسب تلك الحقيقة الذاتية للصلاة فالصلاة ساقطة عن الاعتبار. لكن الحق الذي بيّنته الآية أن الصلاة حقيقة إيمانية لها صور خارجية متعددة ومختلفة. في الصلاة, الله تعالى يحفظ الحقيقة الإيمانية حتى لو اختلفت الصورة الخارجية اختلافاً لا يرى المصلّي إلا أنه عن أمر الله تعالى وليس بسبب هواه الشخصي الذي يعلم به أنه يقصد إنشاء صورة لنفسه على أنها صناعة من نفسه وليست عن أمر الله أو بنحو يرضي الله في إيمانه. ومن هذا السؤال والجواب نعلم سفاهة الذين يختلفون مع بعضهم في صورة الصلاة وشروطها الخارجية بالرغم من أنهم كلّهم يؤمنون أن صورة صلاتهم فيها مرضاة الله تعالى ونابعة عن أمره. هؤلاء يسألون مثل ما سأل أولئك رسول الله. يظنون أن الله سيضيع إيمان الناس فقط لأن بعض أجزاء الصورة تغيّر. وأسوأ منهم, بالأخص أولئك الفقهاء وأتباع مذاهب الفقهاء المسلمين رحمهم الله الذين يرتكبون مثل تلك الاعتداءات والجهالات ويحسبون أنهم مهتدون وفي مسالكهم الآثمة لأمر الله تابعون.

ج-ما علاقة ما مضى ببيت المقدس؟ يتّصل ذلك بأمر بيت المقدس من حيث أنه يكشف عن أحد أهم أسباب المشاكل الحادثة على تلك الأرض. وهو أنك ستجد تنافراً بين الناس بناء على الصور, وسيغفلون عن الجوهر. بل ستجدهم ينقضون الجوهر في سبيل المحافظة على بعض الصور. ليكن هذا المفتاح ببالك وأنت تقرأ عن أسباب الخلاف والصراع الدائر على تلك الأرض منذ قرون وإلى اليوم.

د-تنبيه لأمر لاحق: هذه الرواية تقول أن الناس كانوا يصلّون ل"بيت المقدس". في رواية أخرى "كانت وجوههم إلى الشام" أي في صلاتهم قبل الاستدارة إلى الكعبة. وهذا يكشف عن أن الروايات التي

تتحدث عن الشام, حسب سياقها, تشمل في حديثها بيت المقدس. فإن ثبت أمر للشام ثبت لبيت المقدس, لكن العكس لا يصح لأن الشام أوسع من بيت المقدس, وما يصدق على العام يصدق على الخاص لكن ما يصدق على الخاص ليس بالضرورة يصدق على العام وهذا أمر بدهي. فقد تكون الفضيلة لبيت المقدس خصوصاً دون سائر الشام, لكن إن كانت لكل الشام فهي لبيت المقدس أيضاً.

-5-

عن أنس رحمه الله "لم يبق ممن صلى القبلتين غيري".

أقول:

أين الفضل في الصلاة باتجاه القبلتين؟ الفضل في أمور.

الأول معرفة نسبية الصور وجوهرية الإيمان. كما تقرر سابقاً.

الثاني في كل لون وصورة شعاع خاص من النور لا يوجد في غيرها, أي لون خاص وذوق خاص ليس لغير القائم بتلك الصورة. فالتفاح مثل البرتقال من حيث أن كلاهما فاكهة, لكن لكل واحد منهما ذوق خاص وفوائد خاصة ليست في الآخر وإن وجدت بينهما مشتركات. الصلاة تجاه الكعبة تشترك مع الصلاة تجاه بيت المقدس من وجوه وتفترق عنها من وجوه, فالذي صلى باتجاه القبلتين له فضل لا يذوقه من لم يصل إلا تجاه قبلة واحدة. والذي لا يصلى تجاه قبلة محددة بل يرى وجه الله في كل قبلة, له ذوق وشهود ومعرفة لا ينالها من كان لا يصلي إلا تجاه قبلة محددة ومشخصة يقصدها.

الثالث الجمع بين باطنية الكعبة وظاهرية بيت المقدس, من حيث كون مكة للخاصة وبيت المقدس للعامة. إذ جاء نهي "إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام" بشأن المسجد الحرام وليس بشأن المسجد الأقصى. بالتالي, المسجد الأقصى ليس فقط لأهل التوحيد باختلاف مللهم, لكنه أيضاً لأهل الشرك, فبركته تعمّ جميع الناس الموحد منهم والمشرك. من صلى القبلتين يعرف الحقيقة التي تجلّت في هاتين الحضرتين والحاضرتين, والتي تبرر جعل المشرك أيضاً مستحقاً وقابلًا لبركة بعض مساجد الله تعالى, والحقيقة هي التجلي الإلهي المطلق في كل العقائد "والظاهر والباطن" فعلى الحقيقة ما عبد العابد إلا هو وما سجد الساجد إلا له وإن أخطأ في الواسطة والنسبة لكن يستحيل تعلّق القلب بغيره ولا أن تقصد النفس إلا صفاته وإن كان التعلق والقصد من وراء سبعين ألف حجاب من نور الأذهان وظلمة الأبدان.

-6-

في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تُشَد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى).

وفي أخرى (لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس).

أقول:

النص خبر لا أمر. (لا تُشد الرحال) ولم يقل: لا تشدوا الرحال. (لا تُعمَل المطي) وليس: لا تُعمِلوا المطي. فالنص يحتمل أن يكون خبراً مجرّداً يخبر عن حقيقة وجودية, وليس أمراً شرعياً يُرشد إلى إيجاد أو عدم إيجاد صورة طبيعية. القراءة الظاهرة للنص تقتضي أن يكون خبراً, مثل قوله تعالى "لا يمسه إلا المطهرون" فإنها خبر عن حقيقة, وإن تم تفريع عمل شرعي عليها من باب الدلالة الرمزية والتنزيل في الأمثال لكن الأصالة تبقى للحقيقة الوجودية ولا يجوز اختزال الحقيقة في الصورة, ولا الخبر في الأمر, ولا الوجود في الإيجاد.

بناء على ظاهر النص, ما معنى أن الرحال لا تُشَد والمطي لا تُعمَل إلا إلى (ثلاثة مساجد)؟

الجواب: المساجد هي العوالم. لأن كل عالم من العوالم مسجد لله. ومعنى المسجد هو محل التعقل, بدليل أنه تعالى قال مرة عن القرءان "إنا أنزلناه قرءانا عربياً لعلكم تعقلون" وقال في أخرى "إذا قرئ عليهم القرءان لا يسجدون". فتوجد علاقة بين التعقل والسجود. إذ حقيقة السجود هي حقيقة التعقل, لأن التعقل هو ربط العبد بالرب, ومنه "اعقلها وتوكل" أي اعقل الدابة بالشجرة, أقم صلة وثيقة بينهما حتى لا تنحل وتنفصل عنها. كذلك العقل هو الذي به يتم وصل الحق بالخلق والخلق بالحق. قال النبي "جعلت لي الأرض مسجداً". فالأرض مسجد, والأرض عالم من العوالم الثلاثة الأساسية, والعالم الثاني فوقها هو السماء, فالسماء مسجد, ولذلك ورد في الخبر أنه ما من موضع في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد. والعالم الثالث الأعلى منهما هو العرش, وقد قال الله أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم من حول العرش ويستغفرون لمن في الأرض وما إلى ذلك من عبادات. المساجد ثلاثة لأن العوالم ثلاثة.

لاحظ التسلسل في الروايتين: المسجد الأول هو المسجد الحراموأسمه في رواية المسجد الحرام وأخرى مسجد الكعبة وثالثة مسجد الحرام. المسجد الثاني دائماً مسجد الرسول, لكن هنا تبدأ الثنائية والكثرة فيقول في رواية "مسجد الرسول" ويقول في الأخرى "مسجدي". وفي ثالثة "مسجد المدينة" ومسجد الرسول وسط بين الحرام والأقصى. المسجد الثالث هو المسجد الأقصى واسمه فيه ثنائية وكثرة, فمرّة يسميه "المسجد الأقصى" ومرة يسميه "مسجد بيت المقدس" وفي ثالثة "مسجد إيلياء". فالأسماء كثيرة لكل واحد من الثلاثة.

التأويل كما يلي: المسجد الحرام عبارة عن العالم الأول الأعلى وهو عالم العرش الروحي, والروح وإن كان واحداً لكن ملائكة العرش الأوائل فيهم كثرة إذ فيهم ملك الخلق وملك الحياة وملك الرزق وملك الموت. وهو مركز العوالم وأهم المساجد وأول حقيقة عالمية كما أن المسجد الحرام هو أول بيت لله في الأرض. مسجد الرسول عبارة عن العالم الثاني الأوسط وهو عالم السماوات النفسية, والنفس متعددة وزوجية لأن هنا بداية عالم الخلق بالمعنى النازل له إذ هو مخلوق من الحقيقة الروحية والخلق دائماً خلق من شيء قبله كذلك السماوات مخلوقة من الروح ودرجة العرش قبلها, ولذلك لا تجد في القرءان "خلق العرش" لكن تجد دائماً "خلق السموات والأرض". ونفهم ثنائية التسمية في مسجد الرسول من حيث أن الله قال "ومن كل شيء خلقنا زوجين" فالخلق مرتبط بالزوجية والثنائية والتعددية. مسجد بيت المقدس عبارة عن العالم الثالث الأسفل وهو عالم الأراضين الجسمانية, والأجسام زوجية كالذكر والأنثى ومختلفة كاختلاف ألوانها.

دليل آخر على هذا التسلسل من الأفضل إلى الأقلّ فضلًا, هو حديث أجر الصلاة في كل مسجد. الصلاة في المسجد الحرام أفضل, ودونه مسجد الرسول, ودونه المسجد الأقصى. كما أن الروح أفضل, ودون الروح النفس, ودون النفس الجسم. أو العرش أعلى ودونه السماء ودونها الأرض.

وكما أن السموات تنعكس في الأراضين, فتلك سبعة وهذه سبعة, وما إلى ذلك من توازي بينهما مع اختلاف الطبائع بين لطافة السماء وكثافة الأرض, كذلك ظهر هذا المعنى في المساجد حيث قال "مسجد الرسول-مسجدي" وقال "المسجد الأقصى-مسجد بيت المقدس".

وأما الرواية التي فيها تقديم ذكر مسجد الرسول على المسجد الحرام وبعده الأقصى, فلا تغير من ترتيب الفضل بحكم رواية فضل الصلاة التي هي المعيار الشاهد على التسلسل. وتأويل تقديم مسجد الرسول على المسجد الحرام سيأتي في محلّه من هذه المقالة إن شاء الله.

في ضوء ما سبق: ما معنى شد الرحال وإعمال المطي وفي أخرى "تضرب أكباد الإبل"؟ المعنى الأول هو التغير والحركة. بغض النظر عن الاختلاف الواقع بين تعبير شد الرحال وإعمال المطي, إلا أن المشترك بينهما هو التغير والحركة وطلب الشيء. والطلب يدل على الفقد والسعي للاستكمال. أي التحول من الفقدان إلى الوجدان. وأما التعبير بشد الرحال فتدل على زاد وأمتعة المسافر فهي الرحال التي يشدها بحبل على بعيره حسب صورة السفر حينذاك, وضرب الأكباد عبارة عن بعث الدابة للحركة ووسيلة ذلك, وإعمال المطي عبارة عن تحرّك الدابة فعلياً, وهكذا تجد الروايات تتكامل في وصف المعنى الواحد الكلّي المقصود. وهو الرحلة التي تدل على الحركة لتحصيل شيء مفقود قبل الرحلة. ومعنى ذلك أن الناس في كل حركتهم إنما يطلبون شيئاً روحياً أو نفسياً أو جسمانياً, وفي هذه العوالم الثلاثة تتنزل الأرزاق والخير من لدن الله تعالى. هذا أصل حقيقي عظيم له فروع كثيرة, فليكن على بالك.
قد يقال: قد ورد في رواية لحديث المساجد الثلاثة أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل صيغة النهي "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد". أقول: هذا لا يعكر على ما قلناه, بل يؤيده ويعززه وقد افتتحنا بذكر احتمال الكلام للخبر وللأمر. لكن مع ذلك, فإن نصوص معظم الروايات باستثناء رواية واحدة أو بعض الروايات القليلة نسبياً التي ذكرت صيغة النهي, فإن البقية لم تذكر إلا صيغة الخبر. وحتى الرواية التي ذكرت صيغة النهي, لو نظرنا فيها قد نجد أن الراوي غيّر اللفظ بحسب فهمه أو لعل أحد الرواة أخطأ في النقل. لماذا نقول ذلك؟ لأن رواية صيغة النهي وردت في صحيح مسلم وتوجد رواية أخرى في صحيح مسلم أيضاً بصيغة الخبر لا النهي, فهذه تعادل تلك على مستوى صحيح مسلم فقط فضلًا عن كون صحيح البخاري يوردها على صيغة الخبر وغيره من كتب الحديث ومجاميعه. فإذا نظرنا في رواية مسلم الناهية سنجد أن سندها هو (قزعة عن أبي سعيد الخدري). ونجد في مسند ابن حنبل أيضاً رواية "لا تُشد الرحال" بصيغة الخبر, وهي أيضاً (قزعة عن أبي سعيد الخدري). لكن في مسند أحمد يظهر أن أبا سعيد هو الراوي مباشرة عن رسول الله فيقول أبي سعيد في رواية أحمد (عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا تُشد الرحال"). لكن رواية صحيح مسلم-وتوجد رواية مثلها عن عبدالملك بن عمير عن قزعة عن أبي سعيد- في الاثنين يروي قزعة قصة سماعه لحديث المساجد الثلاثة من أبي سعيد الخدري وهي نفس القصة في مسند أحمد وفي صحيح مسلم, لكن في صحيح مسلم يذكر الخدري صيغة النهي وأما في مسند أحمد فيذكر الخدري صيغة الخبر. فرواية النهي في صحيح مسلم تعارضها رواية الخبر في مسند أحمد. والسند في الاثنين عن عبدالملك بن عمير عن قزعة يحكي قصته مع أبي سعيد الخدري, وإن اختلف السند بعد ابن عمير. ورواية أخرى بنفس السند الثلاثي في مسند أبي حنيفة يروي فيه أبو حنيفة عن عبدالملك ابن عمير عن قزعة عن الخدري والرواية بصيغة الخبر وأخيراً, في مصنف ابن أبي شيبة, يروي عن يحيى بن يمان عن سفيان الثوري عن أبي سنان عن بن أبي الهذيل قال "لا تشدّوا الرحال إلا إلى البيت العتيق" وفي أخرى بنفس السند "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة ومنها البيت العتيق". فنجد أن أبا الهذيل يتحدث من عند نفسه بصيغة النهي, وفي رواية يحصر الرحلة إلى البيت العتيق وفي أخرى يذكر الثلاثة مبهمة إلا البيت العتيق. ونفهم من كلام أبي الهذيل أنه يقصد برواية الحصر المعنى الأكبر للرحلة وهو المعنى الروحاني العرشي المركزي إذ هو أساس ما دونه ومَن حصّل الأعلى حصّل الأدنى من حيث كماله. وفي الرواية الثلاثية يدل على وجه آخر للمسألة وهو أن كمال المجلى الأدنى لا يمكن تحصيل الذوق الخاص به إلا به, ولا يكفي تحصيل كماله الجوهري في حقيقته العليا, إذ لكل مجلى ذوق خاص به لا يشاركه

فيه غيره ولا يمكن تحصيله إلا به. أبو الهذيل يذكر الاعتبارين, وهو عين الكمال والحقيقة الكاملة, ولا تناقض بينهما عند أهل التحقيق كما أنه لا تناقض بين كون العزة لله فقط كما ذكرتها آية وبين كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين كما ذكرتها آية أخرى, فلا تناقض بين الاثنين لأن عزة رسول الله والمؤمنين بالله هي مجالي دونية لعزة الله العلوية. وأما صيغة النهي, فمفهومة من حيث تمثيل حقيقة المساجد الثلاثة أي العوالم الثلاثة في مساجد بمعنى بقع أرضية ومبان صناعية ثم التعامل مع هذه المباني الرمزية على أنها باب وتجل وتحقق خاص للمرموز والمدلول المجرّد عنه من حيث الحقيقة وإن أشرق عليه شعاع تلك الحقيقة.

ثم علينا التنبه إلى أنه توجد روايات ذكرت شد الرحال بصيغة الخبر الموجب "تُشد الرحال إلى ثلاثة مساجد" وتوجد روايات وعلى ما يبدو أنها الأكثر تذكر شد الرحال بصيغة الخبر السالب "لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد". في مسند أحمد قال سفيان بن عيينة بعد روايته "تُشد الرحال إلى ثلاثة مساجد" بالموجبة, قال "ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد سواءً". أقول: إن كان مقصود سفيان "سواء" هو أن رواية الموجبة والسالبة لها نفس الدلالة, فلا يصح. لأنه يوجد فرق بينهما. الرواية الموجبة تذكر بعض ما يمكن شد الرحال إليه, كما لو قلت "يؤكل الخبز والتمر والموز في بلادنا" فهذا لا يعني أن أهل بلادنا لا يأكلون إلا هذه الثلاثة, لكن لعل هذه أبرز مأكولاتهم أو أهم ما يعتنون به. لكن لو قلنا "لا يؤكل في بلادنا إلا الخبز والتمر والموز" فيصير القول حاصراً. فإذا اجتمعت على موضوع واحد مقولة موجبة فاتحة ومقولة سالبة حاصرة, فإن لم نرفض واحدة من أجل الأخرى, فلابد من التوفيق بينهما, والتوفيق يكون بجعل الحاصرة حاصرة من وجه, والفاتحة فاتحة من وجوه أخرى. وهذا هو الحق في موضوعنا وتأويلنا لحديث المساجد الثلاثة. والتأويل هو: "تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد" تتحدث عن المساجد الأرضية الصورية الرمزية. أي هذه المساجد الأرضية الموضوعة الثلاثة لا تحصر حقيقة العوالم الثلاثة وإمكانية تجليها في مبان أرضية وبقع ترابية. لأنه قد توجد مساجد أخرى على الأرض تقوم بوظيفة الإشعاع والتجلي هذه كما قال الله تعالى "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه" ولم يحصرها في بيوت معينة لكن دل على أصل نشأتها وما يعمله النورانيون فيها. خطورة الرمز المادي على المعنى المجرّد والفكري هي اختزال الحقيقة في الرمز واعتبار الحقيقة متماهية تمام التماهي ومتحدة تمام الاتحاد مع الرمز, كالذي يتوهم أن إحراق هذا المصحف هو إفناء للقرءان الذي هو "في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم". تنزيل الحقيقة يعني تجليها وليس تجافيها, أي لا تزول عن مكانها الحقيقي وإن تنزّل شعاعها بما يتناسب مع طبيعة العالم والدرجة التي يتنزل إليها. كذلك مثلًا الحقيقة التي عبر عنها النبي بأن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق فيه "رحمتي سبقت غضبي". فأن ذلك الكتاب ليس من ورق شجر, ولا المكتوب فيه هو نفس الأحرف العربية التي يتحدث بها العرب, لكن المعنى والمدلول المفهوم بما يتناسب مع تلك الدرجة الرفيعة لله تعالى هي المقصودة ويتم تنزيل تلك الحقيقة في صورة تتناسب مع أفهام البشر. وقس على ذلك. بالتالي, حين نقرأ "تُشد الرحال إلى ثلاث مساجد" نفهم أنه يمكن أن تُشد إلى غير هذه المساجد أيضاً, في حال توفرت الشروط اللازمة للرحلة وتوفرت في المساجد الاعتبارات المقبولة والتي تجعل المكان شريفاً ومباركاً. من قبيل دفن أحد الأنبياء أو الأولياء فيه, فإن هذا يجعله مسجداً مباركاً ومحلّا للرحلة المقبولة, كما في مسجد أصحاب الكهف وكما في مسجد الرسول, فإن النبي سمى مسجده ب"مسجد الرسول" و "مسجدي", ولا تصدق هذه النسبة بمجرد وجود الرسول ظاهراً في هذا المسجد لكن وجوده في بطن أرض المسجد أيضاً يجعله "مسجد الرسول" و "مسجدي".

وغير ذلك من اعتبارات أشار لها القرءان والروايات الصحيحة كوجود إنسان صالح في ذلك المكان يُعلم فيه العلم أو يتعبد الله فيه "هنالك دعا زكريا ربه" "هناك" أي في مكان محراب مريم الصديقة. هذا بالنسبة لمفهوم الرواية الموجبة. أما الرواية السالبة "لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد" فالمفهوم الأول الأكبر منها هو حقيقة تلك المساجد وهي العوالم الثلاثة. مع العلم أن الرواية الموجبة الفاتحة تفتح معنى في نفس الرواية السالبة, من حيث أن العوالم التي قد تشد إليها الرحال هي ثلاثة باعتبار لكنها أكثر من ذلك باعتبارات أخرى, مثلًا السماء عالم واحد باعتبار لكنها "سبع سموات" باعتبار آخر, ثم السموات نفسها قد تنقسم إلى "السموات العلى" و"السماء الدنيا". وكذلك العوالم هي باعتبار ثلاثة العرش والسماء والأرض, لكن باعتبار آخر هي درجة النبي والعزّة "سبحان ربك رب العزة" ودرجة العرش "رب العرش" ودرجة السماء "رب السماء" ودرجة الأرض "رب الأرض". العرش باعتبار هو عرش واحد من حيث إفراده "رب العرش", لكن باعتبار آخر قد يتعدد من حيث أنه مرّة "العرش العظيم" ومرة "العرش الكريم" ومرة "العرش المجيد". ثم السموات والأرض يمكن أن نراها ككل واحد هو الكرسي المحيط بيهما "وسع كرسيه السماوات والأرض", وعلى هذا النمط تأمل الموضوع. فمن أجل كثرة الاعتبارات جاءت الرواية الموجبة لتفتح الأفق على حقيقته وتشير لذلك. أما الرواية السالبة الحاصرة فإنها تذكر الأصول الكبرى وهي الروح والنفس والبدن, وهي التي تشكّل آدم وبني آدم من حيث خلق أرواحهم بالنفخ وبرئ نفوسهم بالتسوية وتصوير أبدانهم وتركيبها. وأما اعتبار رتبة العزة مثلًا فهذه ليست لكل بني آدم, ولذلك قال النبي "أنا سيد ولد آدم" و "آدم ومن دونه تحت لوائي" وذلك لأنه صاحب مقام العزة, وهو مقام تجلي الأسماء الإلهية, إذ العزة سمة العزيز سبحانه, وهو بحد ذاته مقام عزيز أن لا يناله إلا من هو فيه بالحقيقة وهو النبي المخاطب بكاف "ربك" في قوله "سبحان ربك رب العزة". فالنبي عبد لهذه الربوبية "رب العزة" أي هو مربوب الأسماء الإلهية مباشرة, وهذه حقيقة وصف النبي بعبد الله وعبده, وهذه ليست كأي عبودية أخرى لمن هو دون هذه الدرجة والمقام المحمود, وبذلك تفهم شيئاً عن معنى كون النبي هو صاحب درجة الوسيلة وصاحب الشفاعة. الذي يهم بني ءآدم هو أرواحهم بالسعة والعلم والذكر واليقين, ونفوسهم بالإلهام والتزكية, وأبدانهم بالمعيشة والراحة واللذة. والمساجد الثلاثة موضوعة للتذكير بهذه الحقائق الثلاث ومصادرها وعوالمها.

وبعد, يظهر معنى التسلسل الثلاثي من وجه آخر وهو التالي: المسجد الحرام خاص بغير المشركين. مسجد النبي خاص بالمؤمنين لكن قد يزوره لغرض وبإذن النبي غير المؤمنين كما زاره نصارى نجران. مسجد بيت المقدس لكل العالمين, مؤمنهم ويهوديهم ونصرانيهم ومشركهم والكل بلا استثناء. لاحظ التسلسل من الأخص للأعم. كذلك هو واقع الروحانية والنفسانية والجسمانية. فخاصة الخاصة هم أهل الروحانية, وهم أهل التقريب وهم قلة. وأكثر منهم الذين تمركزوا حول نفوسهم فهؤلاء أصحاب اليمين. وأكثر من الفريقين وهم أكثر الناس هم الذين تمركزوا حول أبدانهم ومصالحهم المادية وشهواتهم الجثمانية ولم يعرفوا غيرها ولا يريدون غيرها ويعتبرونها القيمة العليا والحجة المطلقة والمرجع النهائي الوحيد لكل شيء. فأهل الروحانية هم أهل المسجد الحرام, ولذلك جعله الله في واد قفر مجرّد وأرض قاحلة من الناحية المادية. وأهل النفسانية هم أهل مسجد الرسول, ولذلك يجد أكثر المؤمنين الجلال في المسجد الحرام لكن الجمال والراحة في مسجد المدينة لأنه أنسب لمرتبتهم ومقامهم وفيه تمتزج الروح بالبدن وهيبة التنزيه ببساطة التشبيه. وأهل الجسمانية هم أهل مسجد بيت المقدس, ولذلك تجد حتى أشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا يتصارعون على بيت المقدس ويريدون تلك الأرض

والمسجد. ومن هنا تفهم سبب تفاضل المساجد في أجر الصلاة فيها, لأن الصلاة نور, فكلّما كان المسجد أقرب للنورانية كان أكثر في الأجر. ويظهر ذلك أيضاً في البيئة الطبيعية للمسجد, فمسجد مكة في واد غير ذي زرع وأرض قاحلة جرداء, وأقل منه في ذلك مسجد المدينة إذ في المدينة تختلط البادية بالحاضر وفيها زرع ونخل, والأقلّ مطلقاً في ذلك بل الأرض الوارفة بالزراعة بأشكالها هي أرض بيت المقدس وتتوسط الطبائع الأربعة وفيها الفصول الأربعة وفيها من بركات الطبيعة الشيء الكثير وتنفتح على الأراضي كلّها. ومن هنا تعلم علة وجود رواية تقدم ذكر مسجد الرسول على المسجد الحرام والمسجد الأقصى. باعتبار أن مسجد الرسول هو الوسط, فهو جامع بين الطرفين ومناسب لأكثر المؤمنين, فبدأ به من حيث أن أكثر المؤمنين يبدأون من الوسط وينتهون إليه ويتعرفون على الأطراف بعين الوسط, فتلك الرواية لهم.

وتستطيع أن تجد الفرق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في ما يفتحه الله على أهله في هذين الموضعين. ومن أحسن الأمثلة على ذلك: قارن بين الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي, وبين إحياء علوم الدين الذي كتبه في مسجد بيت المقدس الإمام الغزالي. ولذلك يصف الشيخ هذا الإمام بأنه "من عوام الصوفية". وما ضنّ به الغزالي كشفه ابن عربي, وما لم يذقه الغزالي ذاقه ابن عربي, فضلًا عن كثرة نقل الغزالي عن غيره وأما ابن عربي فحتى إن نقل شيئاً عن غيره فإنه يصبغه بصبغته ويُصيّره بتفسيره وسياقه وموضع ذكره كأنه له وتابع لقلبه وعقله. والله يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم.-

--7-